مشروع النهضة
صحوة..يقظة..نهضة..حضارة
www.4nahda.com

يقظة فكر
دعوة لإيقاظ الروح وإعمال العقل
www.feker.net

مشهد من عالمية منظومة تنمية التخلف

استعمار الغريزة للعقل

المؤلف: محمد صالح البدراني

من إصدارات
موقع يقظة فكر وموقع النهضة

كانون أول 2009 ©
جميع الحقوق محفوظة

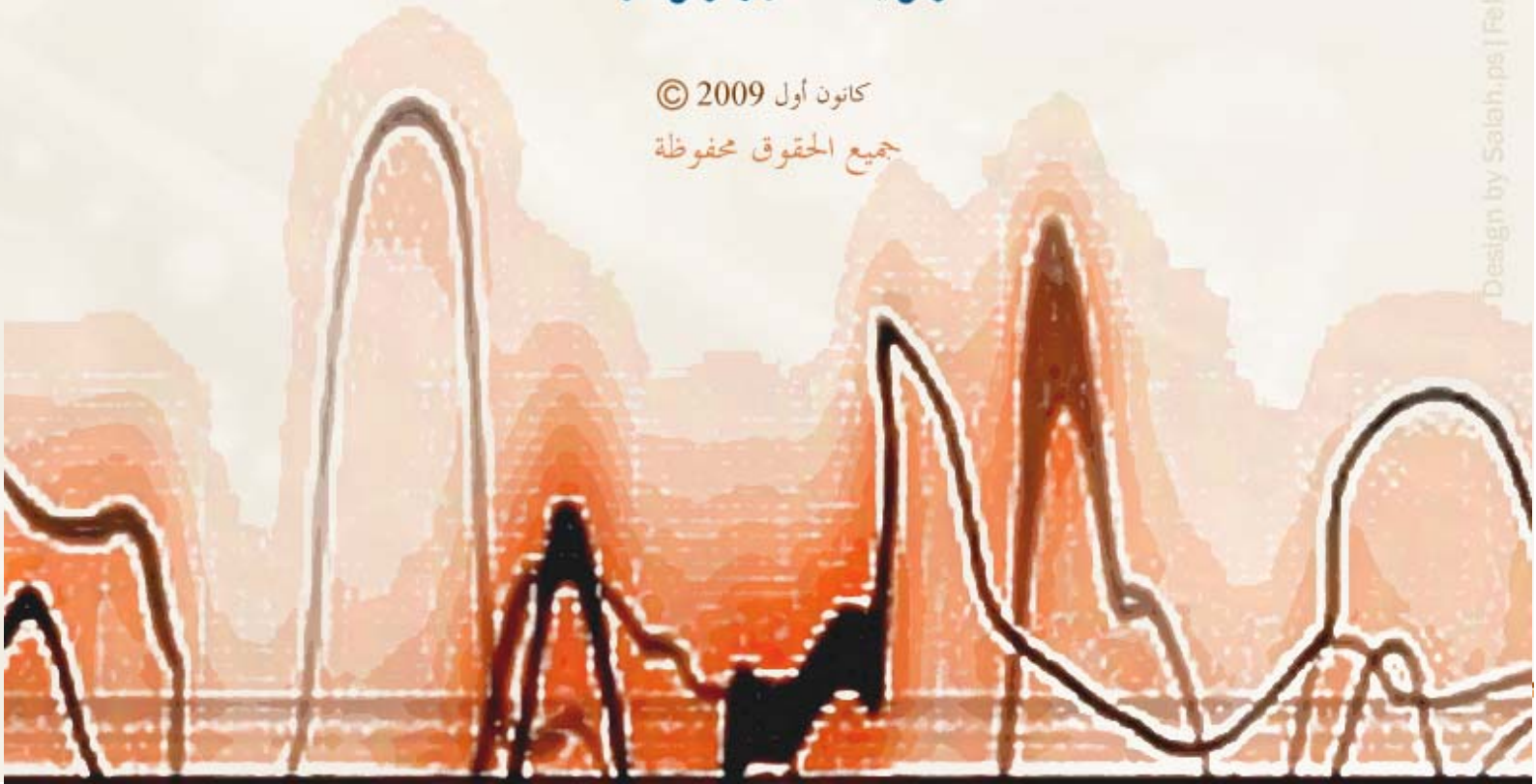

Design by Salah.ps | Feker

شكر خاص للأخ الدكتور جاسم السلطان لملاحظاته التي تفتح آفاقاً جديدة في معالم النهضة ،الله أسأل أن يمنحنا القوة والعلم ويفتح طرق ونوافذ لتنفيد الصالح من الأفكار.

مقدمة

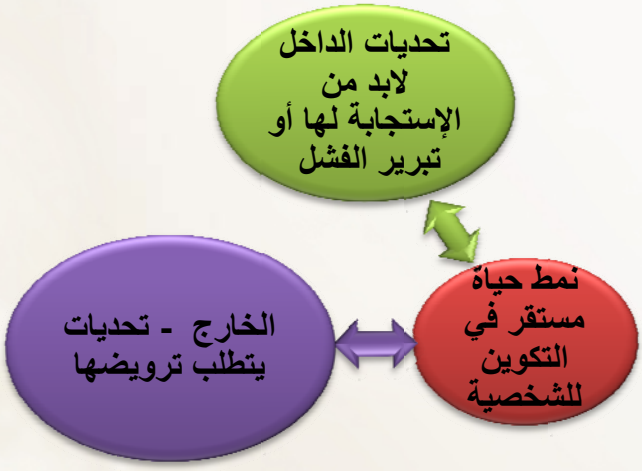

إن هذه ليست نظرية في تفسير السلوك الإنساني، ولا هي انطباعات وصفية، وإنما ملاحظة لحقيقة ألا وهي أن الإنسان تقوده غرائزه وحاجاته ويسخر عقله للتفاعل مع متطلباتها بغياب النظم الفكرية المنظمة للحاجات وسدها أو الغرائز وإشباعها، ويمكن لنظرية أو تفسير لأحد الباحثين أو الأطباء كفرويد أن يحكم سلوكية ونمط حياة عدة تجمعات بشرية إذا ما تبنت رؤاه لمسألة واحدة أو مسألتين من هذه الغرائز والحاجات، فقواعد الأحكام تنطلق من هذه الرؤيا البسيطة لتختفي تماما وقد حولها العقل إلى برامج ولوائح وقوانين بل أضحت من صلب حياته وقد تختفي النظرية ليصبح تطبيقها قوانين اجتماعية وأعراف مقدسة، وربما تسقط النظرية أصلا ولكن يبقى ما بني العقل عليها وحوله ضمن منطق وجوده ونمط حياته... لكن لهذا وذاك تأثير كبير على الإنسان في محيطه ومتى ما امتلك التطور المدني والتكنولوجي يصبح مؤثرا على غيره ولكونه هو المتفوق وفق تصوره المادي فهو يرى ذاته المثل الأعلى بل في صميم تفكير مفكريه الذين يحاولون دائما تبرير السلوك والتغاضي عن الوقائع لإثبات هذا التفوق لكن هذه الأمم تخضع لدورة التاريخ وما يفعله هؤلاء الكتاب إلا دفن الرؤوس في الرمال.

إن حس التفوق القيمي غير الحقيقي هو المؤشر الأهم على تلاشي المنظومة القيمية التي ولدت نمط حياة ولم تولد فكرا حضاريا لأنها جاءت من مصادر وثقافات ومدنيات متعددة وهي غير قابلة للتجدد وإنما قد تجدد النظرة التي نلحظها اليوم في الكراهية والعصبية وأحادية النظرة، وهذا ما لا يرى، فمقاومة الشعوب تعد إرهابا ومخالفتهم المعتقد تشن عليها حرب الرب المقدسة ، والكراهية من اجل الرب، وغيرها من المصطلحات التي يعيبها هؤلاء لو صدرت من غيرهم، شذوذ في التفكير ولدته التشوهات في القيم التي لا جذر لها بل زرعت لأسباب تطلبها واقع الحياة ليكون التمسك بها ووضعها في قوانين منتفخة وتكاد تنفجر، النظم هذه تعد بعدالة يستحيل تحقيقها لان هذه القيم لم توضع إلا لحماية مصالح معينة وليس لحماية الإنسان ومصلحته، لكنها في الدعاية لها وترويجها أصبحت من مسلمات لا ينظر لحقيقة وجودها وأهدافها.

الإنسان المسطح الفكر لا تتولد عنده إلا انطباعات وهذه الانطباعات تنتج أراء بدون أدلة قطعية وإنما أراء يعتبرها ثوابت، هذه مواصفات التجمعات الصانعة للقيم الغريزية، وهي إن افتضحت في الغرب فبسبب الحالة العدوانية التي يتوجه بها للآخرين ، الخوف من المستقبل وتصدير الفشل بسبب عدو أي عدو ، فلابد من عدو ليبرر النظام الفاشل فشله.

والملاحظ لفوكوياما في نهاية التاريخ انه يلجأ في مواضع عديدة بل أغلب كتابه إلى افتراض وإقرار أموراً كحقائق وهي ليست حقائق بل انطباعات شخصية قد يجعله تعصبه لنمط الحياة ومنطلقه المصلحي أن يراها كذلك، هو لا يرى إلا ما يريد، تفسير الكتّاب ولا أريد أن أشير لأسمائهم لكثرتهم كان يضع فرضيات وتفسيرات لوقائع يجهلونها بل يحبونها أن تكون بهذا المعنى، ممارسة للتظليل ليس لأنهم يريدون تضليل الناس بل لأن هذا هو نمط تفكيرهم القائم على الانطباعات وتصويرها كحقائق.

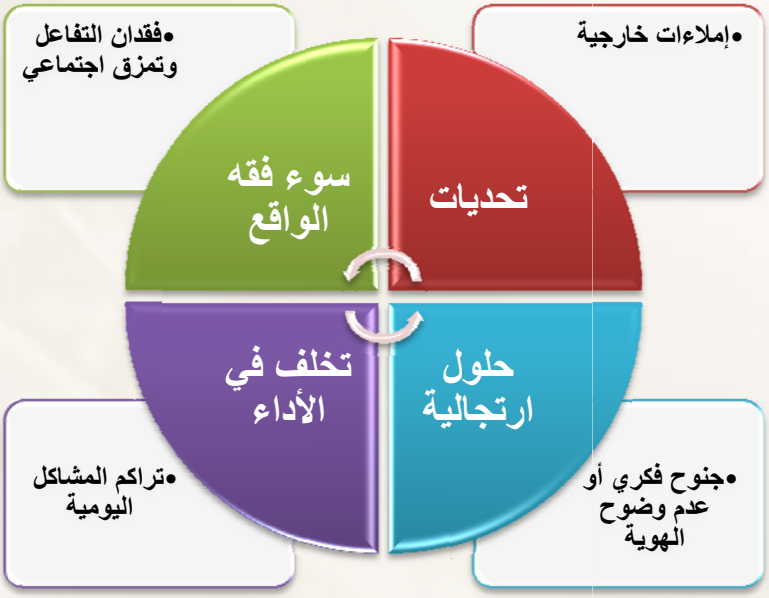

منظومة متخلفة مضطربة

وليس الغرب وحده محكوم بهذا بل حتى العالم الإسلامي اليوم فهذا العالم الفاقد لهويته حقا وفيه مجافاة للإسلام، كان وطأة التأثير الغريزي عنده على أشدها حتى أنه ليس متصالحاً مع ذاته لأنه يعيش في حالة صراع داخلي بينه وبين نفسه وموروثات صماء لا يعرف كنهها فيطورها أو يغيرها أو يلغيها، وبين تطور في الحاجات والمدنية وهجمة لقيم تـــَعد بأمور تخرجه من حالة الظلم التي يعيشها باستبداد أصبحت شرعيته تكاد تكون من ضمن العادات والتقاليد.

وحركات نهضوية ليست نهضوية وإنما وجدت لاستشعار الحاجة للنهضة لكنها ليست ناضجة أو قادرة على إحداث التغيير للحيرة التي هي فيها بين الموروثات المطلوب تجديدها والتي ينظر إليها كثوابت وبين حقيقة الفكر الحضاري، وحيرة المتأثرين بالمعروض من قيم لها أسباب وإسقاط تاريخي آخر وتستورد كتجارب غريبة ودواء لمرض آخر لتوضع في جسم هذا المجتمع، ومن الطبيعي أن يكون دعاة هذه الأفكار سطحيون ويلجئون للانطباعات وفي نفس الوقت يعتبرون أن ما ينتمون إليه من الثوابت المقدسة والتي تغييرها يخضع لقانون العيب المهيمن على النفسية في البلاد الإسلامية وهو قانون يشمل الكثير من أهل الشرق وليس المسلمين فقط.

لم أدخل في مقالتي هذه لتفاصيل وأمثال وإنما وضعت الفكرة لينتقل القارئ إلى كل حدث يراه ويقيس به على ما ذكر هنا وسيرى أن هذا وصفاً سلوكياً للحدث له جذوره التي لا يراها فاعله.

كان المدخل متمما لهذه المقدمة ثم وصفا لاستعمار الغريزة في الغرب وكذلك لهذا النوع من الاستعمار في العالم الإسلامي اليوم ،والاستعمار كما سيتضح ليس بمفهومه الاحتلال فحسب وإنما البناء الذي تقيمه في العقل لتتملكه ، ونرى أن من يخرج من هذا الإطار ولربما الكاتب منهم عليه أن يقوم بعملية هدم وتركيب ليصل إلى إصلاح ما بنته الأفكار ذات المنطلقات الغريزية وليس استيقاظا فجائيا وإنما هو صراع بين الموروث والمتكون الحادث ، ورحمة ربك خير مما يجمعون.

مدخل

قد يستخدم الناس في العادة كلمة احتلال في هذه المواقع أو هيمنة، لكني وضعت كلمة استعمار الغريزة للعقل لأنها تصف الواقع وليست كأحد المردفات، فالغريزة تبني العقل وتشكله وهو راضٍ عن هذا الأمر ودونما مقاومة ولو أن هنالك هيمنة للغريزة لوجدت مقاومة وكذلك الاحتلال، بل أن التطابق ينشأ مع تكوين العقل وترتيب الأفكار فيه، ولا تناقض بين الظلم والإحسان فلكل معنا له تعريفه وممكن أن يقرأ بهذا الشكل من جوانبه المتعددة، فما يجري في العالم اليوم هو ظلم للناس ،وهو رد فعل لإحساس الظالم بالظلم وهو سعادة وتحقيق أهداف إنسانية وحقوق راسخة للظالم ودون تأنيب ضمير، ولو أردت أن تخاطب الضمير الإنساني عند الظالم لوجدك تريد أن تظلمه بل أنت تمارس الظلم فعلا عليه بما يستوجب النصرة له لمجرد أنك تحتج على ما تراه ظلماً ؛وهذا بلا شك يبدو واضحاً عندما تتسع دائرة العلاقات لتكون علاقات بين دول مجتمعات متباينة في تعريفها للمصطلحات والقيم المعترف بها.

الحقيقة أن ما ذكرت هو وصف عام قد نجد تبايناً فيه عند استحضار التفاصيل لكنه مشهد للحالة من عمومية المنظر ، ولو أنها كانت منطبقة على التفاصيل إذاً لفقدنا الأمل في الإصلاح ولأصبحت العلاقات علاقات صراع حياة أو موت. ولعلي أرى أن واجب المفكرين في العالم ليس التوصيف أو الإقرار بالواقع وتخيل حالات مستقبلية والتنظير لها فحسب بل عليهم استكشاف مواطن الايجابية وتعظيمها ومحاولة ربطها حول العالم وليس النظر إليه جغرافياً أو كحدود سياسياً أو تقسيمه إلى أحزاب بالاتجاهات كأن نقول الشرق والغرب وغيرها لما يزيد في معناه عن تحديد موطن الهدف من الكلام، فهذه الأرض تنظر لها موحدة عن بعد وتعرف دقائقها من التفاصيل بالنظرة القريبة.

الإنسانية اليوم تعبير ليس له ضوابط عملياً رغم ما يوضع من كلام نظري بل هو عائم في تعريفه، لأن الإنسان في الحقيقة هو الكائن الذي له عقل ومشاعر إيجابية تتولد من تحسس هذا العقل للأمور، فكيف يتحسس عقلٌ مستعمرٌ للرغبات وسد الحاجات وإشباع الغرائز سلبياً إلا إذا ضربت طرق مؤدية لها، لاشك أنه إحساس رديء يجاوب عليه بعنف شديد، أما إذا تمكن من الردع لكل تحد ومهما كان الثمن فهذا يعني الرضا ويكون الإحساس ايجابياً لكنه لا يفرز أي رحمة تجاه الضحية بل سيتجه لسلخها وشوائها وأكلها وإذا قاومت سيحطم رأسها قبل أن يفعل كل هذا.
فأين الإنسانية من هذا المثل الذي يمثل واقعاً هو اليوم فاعلاً؟ وحقيقة في التعامل العام ما بيننا لقدرات التكنولوجية العالمية والدول الضعيفة التي لا يحق لها أن تمتلك ما تدافع به عن نفسها لتوصيفه اعتداءً على القدرة محتمل الوقوع.

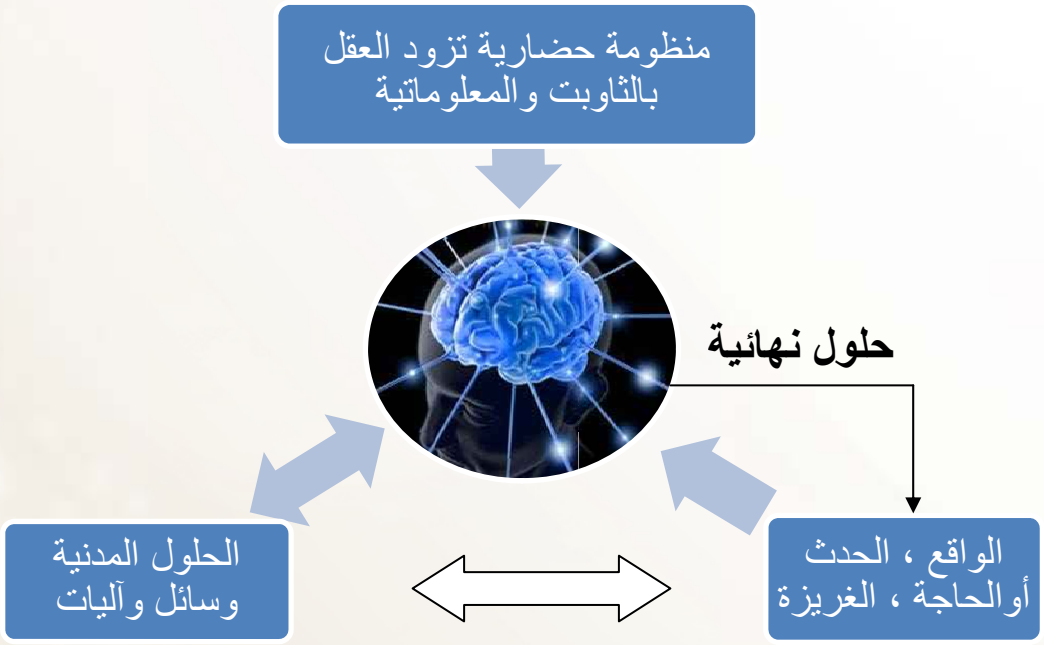

ليس هنالك حرية مطلقة في التجمع البشري ذلك أن هذا مستحيل الوقوع وليس هنالك له إلا التصور الافتراضي لذا كانت هنالك قوانين معترف بها في كل تجمع بشري تحدد مساحة حركة هذا الإنسان ،هذه القوانين مهما كان مصدرها فهي توضع في نقطتين إما أنها قوانين شرع تضع الإنسان بشكل سلوكي مع ضوابط علاجية لحاجاته وغرائزه أو أنها تصف ما هو موجود واقعاً لتعتبره شرعياً وتضع قوانين تصف حدوده، وفي الحالتين يكون الأمر معبراً عن نمط معين للحياة، وفي كلا الحالتين تتطور القوانين التفصيلية إما نتيجة توسع في المفاهيم في الحالة الشرعية الإلهية أو أنها تضيق في توصيف المستجدات فتنتقل من حالة الرفض إلى القبول وإدماج التوصيف في الحالة الشرعية بعد أن كان مرفوضاً في القوانين الوضعية ، الحالة الشرعية الإلهية تعتبر هذا الوصف من ضمن النظام العام وتفصل وسائله، أما الحالة الوضعية فهي تتصالح معه وتدخله في التوصيف الأيدلوجي لها.

إذاً فالقانون يتطور لقبول ما هو ليس مقبولاً في السابق، أما الحالة الشرعية فهي تربي الإنسان كي يسيطر على حدود الغرائز ذاتياً وتضع مكافئة لهذه السيطرة، كما أنها تستقر في أعماقه مرتبطة مع نواة العقل والاعتقاد، وهذا ليس مطلقاً بل يرتكز على الفهم العميق الذي غالبا ما يكون متجذراً ليصبح مثل العادة أو التقليد بنقصان المعرفة والانفكاك من المجتمع عن أصل الاعتقاد فيكون في حالة صراع تديره حالة أخرى هي حالة عرفية اسمها (العيب)

وهذا يحصل في المجتمعات ذات الجذور القبلية ،والعيب يتصارع والنص الشرعي عادة وقهره باستسلام لأنه يبقي نظرة سلبية متوارثة حتى تنسى حقيقة وقائعها ويبقى العار بروايات متعددة.

وأما في القوانين، فهي تعتمد على الانسجام ونمط الحياة وترتبط بالنفعية من احترام الآخرين لذات المحددات التي هي نسبية لهذا فهي لن تلزم من يخالف المجتمع الرؤية نحو هذه النفعية خصوصا وان هنالك تناقض مع هذا في جوانب وأسس لتوصيفات أخرى قد تكون رئيسة .

التوصيفان الأخيران ، عرف العيب والنفعية محكومان بعوامل ظرفية، وهي إمكانية إخفاء التجاوز للعرف العام أو النمط العام للحياة، ويبقى العيب معبراً عن عمق الجذر التاريخي والقدم في رسوخ الأعراف ،أما الحالة الأخرى فتبقى على مدى موافقة المجتمع على ضمها إلى فقرات القانون لتصبغ باللون الشرعي وتدخل الخط الأخضر في السلوك لهذا يكون الإخفاء علاجا للمعيب من السلوك والإظهار تشجيعا لإبراز الموافق من السلوك ليجري الاتفاق على شرعيته وإدخاله إلى الخط الأخضر من القوانين.

فالتدهور السلوكي نجده ممتداً عند الطرفين لكن أن يختفي في حالة وأن يظهر في حالة فليس الاختفاء ولا الظهور يعبر عن حالة إيجابية لكن الاختفاء قد يبقي السلوك السيئ فاقد للشرعية منعزل غير متوارث مذموماً في الحياة العامة حتى عند مرتكبه.

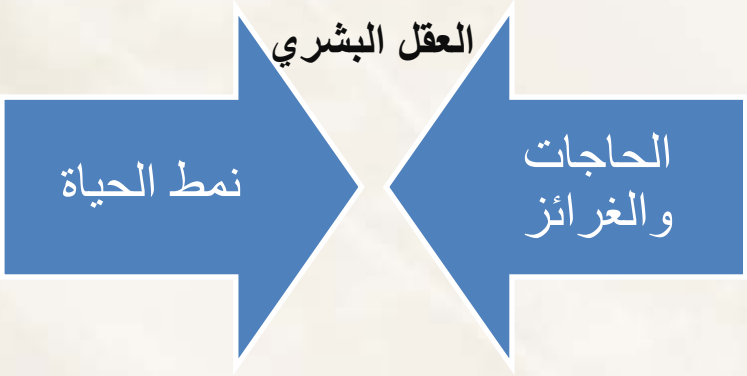

الغرائز تدخل في الطرفين تشكل العقل وفقها وبشكل غير منظور

الإنسان غرائز وحاجات وبفقدان الفكر المنظم تطغى الغرائز والحاجات ولا يلتفت الذي يقرأ إلى معنى واحداً من الغرائز أو الحاجات بل إن طغيان غريزة مثل (حب السيادة) هي الأقوى أثراً عندما يتولى من تطغى عنده من يملك القرار والقدرة للإضرار بالآخرين أو استنفار قومه للهيمنة على أقوام أخرى بما يستطيع من معطيات واقعه وزمانه لهذا الاستنفار مسخراً تفكيره وعقله لخدمة تلك الغريزة التي تتحول متعاظمة من المحيط الضيق كفرد إلى المحيط الواسع عند قيادته للأمة، والحقيقة أن فرعون كمثل لحالة عصره تتكرر باختلاف العصور فالعدل قيمة مطلقة وليست نسبية، لكن التوازن هو النسبي وتحقيق التوازن قد يعطي الرضا ولكنه لا يحقق العدل إلا بنزاهة الوسائل وسمو الأهداف.

ولعل المفكر يخطأ حين يقرر أن الحالات المتباينة موجودة على قياس النسبية عندها لن يشكل فكره للتغيير بل للإصلاح في واقع يتسع الشرخ فيه ويبقى المفكر عاجزاً عن إعطاء الحلول الناجحة بل يبقى يرقع حتى يناله العجز ثم يستسهل التبرير لأنه سيكون جزء من واقع الانهيار بل مشاركا فيه وليس المفكر أو المصلح إلا من الواقع انطلاقه فان لم يحسن التوجه مخترقا الظلام بنور أكيد بقى يتتبع تشتت النور في الضياع، وأن يوصف الباحث المسلم بالمُتَفَكّر أولى من المفكر ذاك انه يستند إلى مفهوم حضاري راسخ ليستنبط منه حلولا لما يفقه من مشاكل الواقع وهو أكثر قدرة على التراجع والتقدم وتصحيح المسار من خلال محددات الأخلاق والسلوك إن كان فاهما للمقاصد وسبب وجوده وعمق مهمته منظما لغرائزه بحدود دعوته.

إن ما قدمت له أعلاه هو وصف لحالة إيجابية في تسلسل التفكير، بيد أننا إذا زدنا الأمر تفصيلاً سنجد أن الحقيقة تحتاج إلى سبر في أعماق التكوين للتجمعات البشرية الحالية التي أغرقت ذاتها في السجن الجغرافي وأضحت كقبائل في سلوكها بما يقتضيه واقعها المتمدن وهذا تعبير عن تحكم المصلحة في السلوك القبلي المتمدن الحالي، بل أن هذه القبيلة العصرية لها صراعات داخلية تختفي وتظهر وربما تمتد بانسيابية تحت السطح وبفاعلية ضعيفة لكنها حين تنفجر تأخذ شكلاً بركانياً مدمراً وهذا يتخذ شكلين فإما أنه يكون تدميراً داخلياً في التجمعات البشرية المتخلفة مدنياً أو يتوجه إلى الخارج باعتباره تهديدا للاستقرار الداخلي في التجمعات التي تمتلك القدرة والتمكين المدني. وهذا له واقعه عندما تتحسس النظم المتجاورة الخطر تتوجه للجوار ليس برغبة التوسع وإنما لاستثارة الخوف وتفعيل التفكير الجمعي، ذات الشيء يحدث في النظم المتطورة مدنيا ولكن في محاولة للاستيلاء على ما يسد مساحة النقص التي ولدها الفراغ التطبيقي لعدالة القانون سواء كان هذا من الناحية المادية أو من الناحية الفكرية التي أثبتت فشلها في تحقيق العدالة.

إن الحكومة تنشأ أساسا كترتيب إداري للمجتمع كي تسير أمورها اليومية بطريقة تعتمد على مدى تطور الفكر أو الفقه الإداري وهو مسألة مرتبطة بتطور المدنية في العالم وسهولة نقل المعلوماتية، بيد أن الذي يحصل فعلاً لا يطابق هذه النظرية تماماً ، بل هنالك تسلط وتفرد سواء أكان التفرد من شخص أو مجموعة ولا يبدو هذا مستغرباً لأنه وصف لواقع عالم اليوم حقيقة مهما تعددت الآليات المبررة للسلوك.

وما هذا إلا توصيفاً لحالة استخدام العقل في صالح غريزة أو مجموعة غرائز تدير نظام ،وتبقى للصفة الإنسانية مساحة مع كل هذا في الحركة سواء في محاولة التصويب أو الانتفاض أو الرغبة بالتغيير لكنها هبات أو ومضات تختفي وتظهر لفقدان فاعلية الفكر الموجه لهذه اليقظة الإنسانية التي تأتي من الإثارة الغريزية حقيقة إنما لا تعالج متطلباتها قواعد النظام المبنية على حاجات وغرائز مستنفرها الخوف المستمر.

في هذا التوصيف العام نبقى في حدود وضع أطر مفترضة لوصف واقع قد نوافقه وقد نختلف معه وفق ما يحمل كل منّا رؤية مفترض أنها كحل لإشكالية الواقع المرير الذي تعيشه الإنسانية جمعاء بين ظالم ومظلوم وذلك ما يتحسسه لدرجة اليقين الكتاب والأدباء والشعراء بل المفكرون يتحسسونه لدرجة كبيرة وتبقى الحلول محض افتراضات أو ترف فكري كما يقال ذلك بسبب المنطلقات الأحادية الجانب أو أن التوصيف المتوارث لا يسعف المثقف لمزيد من التقدم بحلول عملية والمعلومة تقود المثقف والمفكر لوضع مسار رؤيته ، وقد تتوافق هذه المسارات مع النظام الغريزي العالمي فتدمر شعوباً بكاملها وتعطل حياتها دون فائدة حقيقة للأهداف المعلنة لهذا لكنها بالتأكيد تعود بعمليات نهب قبائلي للقبائل العصرية بطرق مبتكرة هذه أو أنها تكون غزواً عبثياً للأخذ بالثأر أو نحوه عند المتخلف من هذه القبائل ولا تعود إلا بالخسارة على الطرفين. أو أن حب السلطان يحفز الداخل وجوانبه لمعارك عبثية وهذا كله من فاعلية منظومة تنمية التخلف، فمازالت دول الغرب تخوض معاركها التجارية، ومازالت دول البحر الأبيض تخوض معارك داحس والغبراء أو البسوس، ذلك لهيمنة الغريزة المعززة بالروابط الهابطة والتقسيمات التي لا تعني أكثر من وسائل تبرر استمرار الصراع الناتج عن الفشل والإحباط. العالم اليوم ـــــ كما أرى ـــــ ليس إلا واقعا لعقلية قبلية متمدنة ولا حضارة فكرية حاكمة فعلا.

1ـــ حاكميه الغريزة في دول الغرب:

نحن نعرف النظام بنوعية القوانين والنمط الاجتماعي السائد وربما إذا دخلنا التفاصيل سنجد أن النظام الاقتصادي يتصدر التوصيف غالباً وهو العامل الأساس في إدارة التجمعات البشرية المتمدنة، وأقول تجمعات بشرية لأنها الكلمة المعبرة عن حالة التشكيلات في العالم الأرضي، فهي وإن انطبق عليها تعريف المجتمع فإنها تفتقد للجانب الفكري الحضاري ويبقى هيكلها العام مع الحالة المدنية المتغيرة التي لا تعطي الثبات والاستقرار إضافة إلى نسبية القيم التي تصالحت عليها الأمم ونسبة تصالحها الفعلي معها ، لكنها تبقى مجتمعات من حيث التعريف العام*1.

---

*1 المجتمع: هو مجموعة من الناس كثرت أم قلت يحدد علاقتها نظام معين وأفكار ومشاعر، ولا يحدد المجتمع برقعة جغرافية أو حدود حيث يكون الهدف واضح المعالم، وهذه الصلة ليست نسبية أو مدنية بل هي عقدية فكرية وقد يكون مجتمعا واحدا بعدة مدنيات، والمجتمع يسمى بما تديره من أفكار فاعلة وإن لم تك فاعلة فليس هو بمجتمعها وان وصفت به، فلا يكون المجتمع إسلاميا إلا إذا فعل الإسلام به ولو كان غالبية أهله مسلمون، وإذا فعل الإسلام فهو مجتمع إسلامي وان كان نسبة المسلمين فيه هي الأدنى فالمجتمع صفة النظام وتفاعل الناس معه. من اجل هذا كان تسمية المجتمع الجاهلي والمجتمع الإسلامي، ومجتمعات سميت باسم آليات فاعلة فيها، كالليبرالية أو الديمقراطية أو الشيوعية وهي منسوبة لحالات متعددة.

((إن تجارب القرن العشرين، قد أثارت مشكلة ضخمة حول دعوى التقدم على أساس من العلم والتكنولوجيا. ذلك أن قدرة التكنولوجيا على الارتقاء بالحياة البشرية تتوقف بشكل حاسم على حدوث تقدم مواز في أخلاق البشر.))
فوكويوما (نهاية التاريخ ـــــــ تشاؤمنا)

النص أعلاه نرى فيه تحسسا واضحا لسلطة الغريزة على واقع الغرب، ولكن بشكل يمثل حالة الهروب عند توصيف المثقف وهو لا يصل إلى الأعماق، وإن كان وصفه هذا يتحدث عن تاريخ ليس بالبعيد إلا أني استطيع القول أن استمرار الحال لن يؤدي لصنع أفكار وإنما تحديد انطباعات وإن تبناها المجتمع فهي انطباعات تبقى غير فاعلة عند حصول الاهتزاز العام وان كانت هذه القيم الانطباعية الأصل ترتجف كل يوم عند جيوش المشردين والعبيد الطلقاء كل ما في الأمر أن سبارتكوس لن يظهر لأن فكرته قد قمعتها سيادة القانون تماماً كما تحصن الدول الشمولية النظام نفسها بالقسوة والرشوة، إلا أن النظم التي اصطلح على تسميتها بالديمقراطية تكون أكثر تحصيناً من النظم الشمولية والدكتاتورية بحكم أن النظم الشمولية قد يستشعر ظلمها بقايا الإنسانية في مؤيديها أما النظم الديمقراطية فهي قد قضت أساساً على هذا الاستشعار عند أصحاب القرار وعند المظلوم ذاته ذلك أن الديمقراطية والحريات التي تلصق بها ليست إلا آليات تخدم بمجموعها النفعية لذوي المصالح ونظامهم أو كما اصطلح عليهم لينين بالرأسمالية. فصاحب القرار لا توجهه آليات الحماية لنمط الحياة بل هو أساسا ضمن هذه الآلية التي تحكمها أهداف ذوي المصالح المهيمنين على النظام ككل.

لم تتشكل النظم الغربية بحالة واحدة لهذا كان إفراز نظم متعددة رغم أنها تسمي نفسها بذات الاسم، فأوربا مرت بحمل وتعدد المخاض التاريخي، لكن النظم الملكية والتي استعانت بالدين لإثبات حقها الملكي وما زال قسم منها لحد الآن يعتبر ولو بشكل ما رئيساً للكنيسة المحلية، إلا أن الكنيسة هيمنت على الملوك والعامة ووضعت نظاماً لا تحكمه شريعة لأن الكنيسة ليس لديها شريعة وفق التعاليم المسيحية، لذا كانت تتعامل بالإرادة المطلقة وهي أهواء العاملين فيها مستندة إلى فكرة الخلاص والمغفرة وغيرها، فكان نظاماً استبدادياً أفقد الناس الثقة بدينهم وهو أمر طبيعي عندما يكون رجل الدين هو الذي تتجسد فيه الفكرة والآخرون محض أتباع يغفر هو لمن يشاء ويعذب من يشاء، وفي ذات الوقت هو دولة حاكمة بأمرها في تفاصيل حياته، هذا الفراغ التشريعي الذي كان يملؤه الهوى أثار ملوكاً بتصارع رغباتهم وهيمنة الكنيسة وتضارب مصالحهم ، وأموراً أخرى كثيرة في ذات الوقت الذي اعتبر الناس أن هذه السلطة الدينية هي في الحقيقة سبب من أسباب ما يحصل لهم وداعمة للجور والظلم، فكان تبني فصل الدين عن الدولة في أفكار الخلاص في عصر سمي بعصر النهضة لتجنب الاصطدام المباشر بالمعتقدات وهو ما عرف بالعلمانية، والعلمانية

هي تعبير كنسي يصف رعاية الكنيسة من غير رجال الدين المختصين أي العامة من الناس، وهكذا أصبح تعبيراً تبناه الساسة لإزالة تلك الهيمنة التي تسببت بكثير من الدموية والتخلف.

والحقيقة أن بنظرة فاحصة لهذا السرد التاريخي ومن خلال قراءة طبائع البشر نجد أن هذا التفسير ليس كامل الإنصاف، وأنه في كتابة التاريخ قد تهمل أشياء مهمة تبدو طبيعية فلا تجذب نظر المؤرخ وتتوافق مع نهج علوم المجتمع، فالناس هي من تصنع الدكتاتور سواء كان فكرة أو شخص أو هيئة أو حتى محض طيف عابر، هو صنع في الداخل نتيجة الجهل والعجز والجهل يجعل الأمة تقبل بالظاهر من الأمور دون رؤية تسلسلاتها وعندما تتفشى يكون على الأمة أن تقاوم درجات التحسس للأمر في داخلها و الطبقة المستفيدة المتشكلة طبيعياً، فالتحسس للخطر ليس واحد وتحكمه عواطف وعوامل ، ففي حين ما يزال البعض مرتبطاً عاطفياً غير متضرر لدرجة تبرر مقاومته يستشعر آخرون الخطأ ولكنهم ليسوا قادرين على التحرك وحدهم لهذا يتوجهون للناس التي تتعامل بغرائزها في العادة ولم تستثار تلك الغرائز بعد فتجري مقاومة داخلية للتغيير من هؤلاء العامة للمجدد واتهامات له وما يتبقى من القوة الضعيفة التي انكشفت في تلك المحاولة مصيره السجن أو القتل بأنه تهديد للمجتمع ونمط حياته، وهكذا يصفق الجمهور لإعدام الأمل بالإنقاذ... ثم أن نظرنا إلى طلب الناس أن تفسر لهم مسالكهم في تلك الحقبة وبشكل واقعي قد لا نستغرب معه سلطة رجال الدين في أوربا إذا ما نظرنا إلى واقعنا نحن كمسلمين ـــــ وليس في الإسلام رجال دين ـــــ نرى أن الناس الجالسة في مجالسها تسأل عن الفتوى في كل أمر صغير أو كبير في حين أن الفتوى توضيح لحكم شرعي في معناها وليس تحليلا أو تحريما وان حصل فيها هذا فهو تجاوز على معناها ولكن التجاوزات حاكمة رغم أن التعاليم الإسلامية تعتبر هذا عبادة لغير الله بإتباع حكمه...وهو في خطأه وصوابه لا يعفي متبنيه جزاءا أو أجرا بل هو مسئول ذاته في الحالين، فما بالك بمجتمع يعتبر رجل الدين ناطقا باسم الله أصلا بكنيسة تحرم وتحلل برأي رئيسها ، من الطبيعي السلس والمنطقي أن يستمر ذلك قرون عدة قبل التحسس الخطر المؤدي للثورة ، وهنا يأتي السؤال: ما هو البديل؟ وهل يقضى فعلاً على ما أحدثته قرون من تربية بآليات هي دوما عرضة للاستغلال واستبدال الآلهة مع تحول الظلم من شكل إلى آخر؟

الحقيقة أن الأفكار المدنية مصدرها في الواقع البشري ومن التحسس وتكوين الانطباع عن المشكلة بتشخيصها، ولحد هذا فهي مشتركة عند كل الجنس البشري، ثم تعيين ماهيتها ومن هنا يبدأ الاختلاف في توصيفها ، ثم البحث عن حل وهنا يكون الاختلاف واضحاً بين المجتمعات والأمم ، وأن التجمعات البشرية لابد أن تكون لها تركيبة إدارية تحرك كل هذا ضمن عرف أو قانون ومن خلال منطلقات أو منطلق رئيس يتفرع لتغطية وإدارة أمورها.... أما كيف يحصل هذا فهو من خلال إبراز أفكار وتبنيها قد لا تعار هذه الأفكار أهمية لولا أنها ظهرت أو استعيد توليفها بتوفر

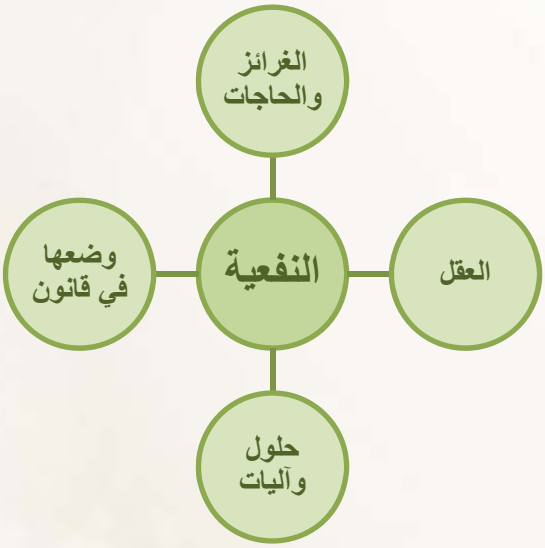

البيئة الملائمة لنموها ومن خلال تبنيها من أصحاب الأهداف لإكمال الإطار الفكري الذي يعطي القاعدة لدعوتهم أو أغراضهم وآلياتهم باتجاه أهدافهم، ومن العبث محاولة وضع قانون موحد لهذا الأمر لأن الحالة الفعلية تكون ممتزجة ما بين الإيمان بهذه الأفكار وما بين استغلالها ، وقد تتحول تدريجياً إلى أساسيات يتحدث عنها متبنيها ولكن حالها حال الشعارات التي يهتف بها ثم يعود كلٌ إلى بيته لمواجهة هموم واقعه غير المفعّل فيه وجودها.

لقد كان تحسس المفكرين لظلم الواقع في الغرب ، لكن لابد لهم لتغييره من إعطاء أفكار بديلة كشعارات مثل الثورة الفرنسية أو كتنظير للحفاظ على مصالح الكتلة الرأسمالية (أصحاب المصالح) في الولايات المتحدة الأمريكية، هذه الأفكار كما هو معلوم لا تسير على نسق واحد وربطها مع بعضها لخلق جذور أمر فيه إقحام كمن يقحم أسباب وتبرير إشراكه انه عين التوحيد عند المسلمين، أي إبقاء المجتمع في حالة من التخلف الفكري لاستمرار الفكرة المقحمة سواء تعمداً أو أنها تتخذ طريقها بشكل نمطي، وتبقى مخلفات الماضي ترتفع وتنخفض مع الأمواج والهزات التي تحصل في التجمعات البشرية.

و برزت أفكار مثل الداروينية والفلسفات الحديثة أو إعادة صياغة فلسفات قديمة في استقراء الواقع ووصفه ولم تك تحمل علاجات حقيقية وإنما افتراضات تحولت إلى نظريات وتجارب، ولم تحدد نمط مدني للحياة لهذا كانت مرتكزات لنظم متجافية متباينة بل مختلفة تماما في التوجه، واستند تفسير الحالات الاجتماعية كبديل لسد الفراغ إلى رؤى تم انتقاءها بما يفيد الفكرة ونجحت أفكار فرويد في اخذ مكانها في التصور العلماني لإشكالية الغرائز وما انطلق من آثارها فيما بعد من قوانين وأعراف اجتماعية تباينت في فاعليتها عند الشرق والغرب العلمانيين، بل أنها رسخت بالتقادم في هيئة بغير مدلولها الحقيقي حيث اعتبرت الإثارة المطلوبة من سفور المرأة كحق للمرأة وليس كمظهر لدورها في نمط الحياة مثلا وأن التخلي عن رعايتها هو نوع من المساواة، بل تزاوجت تلك القيم بشكل غريب في الغرب مع تقدم التأثير وتعايشت مع الدين ولم تنكره لكنها جعلت منه تبعا لها وسطحت الثوابت الدينية ونتيجة التسطيح ظهر نوع من الانتماء بما يشبه الانتماء للحزب من ظاهرة التعصب والغلو فالتطرف؛ والتطرف عند الغربيين ليس كالتطرف عند بعض الحركات الرافعة للراية الإسلامية ، فالتطرف عند الغربيين آت من انطباعات ضد الآخرين، أما التطرف عند الحركات الإسلامية بغض النظر عن تحليل انتماءاتها وتبعيتها الحقيقية فهي تستند إلى المظالم

وفقدان الحكم الإسلامي الذي يقرر الأمور كقرار شرعي واعني بذلك مؤسسة الخلافة وتشظية المرجعية فكانت هنالك تأويلات تسحب وتقارب وتبسط وصف الواقع لاتخاذ مواقف تنقصها الإحاطة بعلم الشريعة وبفقه الواقع ومحاولة التبرير للاستمرار وصناعة الأهداف رغم الحاجة لمراجعة الوسيلة .

المسيحية وفقدان الشريعة في تعاليمها كان لها أثراً في استمرار الفراغ الفكري لحد الآن ،وفي محاولة سد هذا الجانب جرى تجميع وتقارب مع اليهودية بحكم المصلحة ولكن لهذا أثر أيدلوجي سلبي متناقض لكونه جمع نقيضين فعلاً بما يظن أنه يفعل لوحدة هدف مختلف التوصيف عند الديانتين فهو يعني للمسيحية عودة المسيح ليكون ملكاً، وعند اليهود حرب تقضي على أعدائهم كافة ، والمشترك بينهم هو الإعداد لهذا الأمر وذاك وما يسميه دعاته (حب الرب العدواني) مبنية على كره المخالف وفق انطباعات ومشاعر تشحن من قائمين عليها ولا تستند إلى توصيف أو نص اللهم إلا النصوص التي تأوّل نتيجة الانحرافات التاريخية والعقدية عبر تاريخ هذه الأديان .

الحقيقة أننا هنا لا نبحث في تفاصيل ما ذكرت وإنما أشرت إليها بغية الوصول إلى استسلام فئة لا بأس بها لهذا النوع من الغريزة التي هي التدين واستسلام فئة أخرى لغريزة التملك وغيرها من الغرائز التي تنشأ قوانين ونمط حياة؛ ولكن بتسخير العقل لتحقيق ما يفرزه جموح الغريزة في عالم يتقدم مدنيا وتكنولوجيا.

ترى لماذا حصل هذا؟

الكنيسة أوجدت نظامها في أوربا، ونظامها هو نظام سلطة رجال الدين وهواهم فهم يحللون ويحرمون ويصدرون التشريعات بما يرون، وتحسس المفكرون والفلاسفة فوجدوا الثغرة في اندماج النظم والكنيسة بمصير واحد وإزالة النظم تعني إزالة سلطة الكنيسة ولكي يبنى نظام غير النظام المحيّد من سلطة الكنيسة والحكم الإلهي وغيرها كان هنالك تنظير باتجاه الفصل بين الدين والدولة ، المستقرأ لا يجد الحرية أو الليبرالية من سمات المجتمعات الأوربية في مرحلة الخلاص فالثورة الفرنسية أفرزت نظاما استبداديا قبل أن يتبدل هو الآخر مستعيناً بتنظير مجدد، لكن لا يمكن اعتباره أكثر من نظام محلي لفئة وتجمع بشري يفشل عندما يصطدم بثقافات أخرى في الحفاظ على تصوره النظري، وهذا بفعل استثارة الغرائز التي حولت جوهر المعتقدات إلى شكلها المسطح الموجود حاليا في الغرب، لكن القيود الكاثوليكية بقت فاعلة في أوربا التابعة لكنيستها وكانت الكنيسة تحاول دائما الإبقاء على ارتباط أتباعها بها ولو شكليا لهذا كانت تتساهل في موافقة قوانين لا تمت بصلة إلى الدين ولكن لا تعني موافقتها أو عدم موافقتها أي أمر وإنما لإبقاء صلتها الشكلية وهيمنتها الداعمة للرضا فتحول رضاها نوعاً من الارتباط رغم أن موافقتها مفروغاً منه

بممانعة ثم استسلام وهكذا فأخذت تتغير مع التطور في نمط الحياة، وهذا أكثر وضوحا في الكنائس البروتستانتية حتى رأينا أن أسقفاً لكنيسة تمثل الطائفة مثلي الجنس وأن مساعد لكنيسة هي امرأة مثلية الجنس ولم يك أمرهما سراً أو غير معروف فلديهما رفيق ورفيقة لخمسة عشر سنة وعشرين سنة وهو أمر كتبت عنه الصحف ونشر على الانترنيت ومرفق نموذج منها لاحظ المرفقات*2

الحقيقة أن ما طرحته أعلاه لإبراز حالة من الفهم المسطح للدين واستعمار الغريزة للعقل بالتبرير والحوار حول ثوابت كونية ، ولكن هذه الحالات الشاذة التي تنتج كأمراض اجتماعية وإخفاقات نفسية، ما هي إلا نتيجة خلل في التكوين الفكري وفاعليته..

الرأسمالية وهذا تعبير عن الأفكار الوضعية التي يمكن أن تحلل بذات نموذج التحليل هذا، أدخلت لحمايتها آليات ومن ضمن هذه ومنها للدلالة لا للحصر:

1. فصل الدين عن الدولة – متشابهة بالفاعلية مع الشيوعية كنتيجة وليس التفاصيل.
2. الديمقراطية – متشابهة بالشكل الإجرائي النهائي وليس بالفاعلية
3. الليبرالية – شكلية في النظام الرأسمالي ، تبريرية في النظام الشيوعي.

الحقيقة أن هنالك نظرية وتطبيق، والنظرية تعطي وصفاً غير التطبيق، خصوصاً وأن النظرية تتغافل عن الربط بين فاعلية الغرائز عندما تناقش موضوعاً مما ذكر أعلاه، ففصل الدين عن الدولة هو تعبير عن فصل الأهواء والتكلم باسم الله وصفاً لرغبات وأهواء طبقة مستبدة من البشر ليس لها فقه حقيقي. لكن التدين غريزة فكيف عولج الموضوع ؟

عولج بتسطيح جوهر الدين وجعله يتغير مع الواقع، والحقيقة في دين لم يوضع للحكم والإدارة ليس من سبيل غير هذا أمامه للتواصل مع الرعايا، فإبقاء الانتماء مرهون بالتماهي وتطور الواقع وهذا هو ما يحصل دائماً من اجل هذا كان الرفض للآخر مظهرا وكانت فكرة صراع الحضارات معبرة عن العجز في تطابق الفكرة مع الواقع ومحاولة فرض البديل على الأصيل.

---

*2

http://www.burhanukum.com/article47.html (الرابط للمصدر)

http://www.masrawy.com/News/World/BBC/2009/December/6/1104518.aspx?ref=rss

ما عرضناه لاحظنا التالي:

مظهر غريزة حب التملك: هي الرأسمالية والتي قادت العقل واستعمرته لإيجاد آليات وحماية لذاتها من هجمة المحتجين وقتل روح الثورة بالتعبير عن الخواطر وإشغال الناس بمفردات الطلب الذي يفرضه واقعا نمط الحياة المدنية. أما حب التملك في الشيوعية فكان بشكل استثارة الخوف من العقاب للمعارض والنظام الشيوعي خرج من التاريخ فلم تعد أهمية للدخول في تفاصيله غير الاستذكار.

أما الآليات التي تبنتها الرأسمالية لحمايتها وتشكيل نمط حياة مستقر رغم فقدان العدالة فهي آليات تأخذ المظهر وليس الجوهر وهي عاجزة تماما عن إثبات وجودها كنظام للبشرية، وإنما نجاحاتها ليس لكونها رأسمالية أو تظهر الليبرالية وإنما لأنها تفيد من العلوم لتحقيق الربحية وليس الإنتاج فحسب، وبالتالي فهي تمضي لتطور مدني انفجاري لتراكم الجهود، لكن قيمته تضيع بسوء الغايات، فأي نظام اقتصادي ممكن أن يحقق إنتاجا وفق تجاربه لكن الإدارة هي التي تحدد نجاح وفاعلية الإنتاج والإدارة التي اعنيها هي من التخطيط المحكم إلى الرقابة فالموازنة كتهيئة لتخطيط وفق إعادة التغذية لمنظومة الاقتصاد نحو تطور امثل، لكن فشل النظم مثل النظام الشيوعي ليس باستغلال الطاقات للإنتاج بل بإدارة الإنتاج نفسه وتفسير معناه أي إدخاله إلى حالة مفيدة وتحليل زوايا الجهد. فما نفع أنتاج وفير دون خطة للتسويق أو التخزين والاستهلاك، ما نفع صنع اكبر ثريا في العالم إن لم يكن بالإمكان استخدامها لعدم وجود سقف يحملها.... هذه أمور لا ينبغي أن تنطلق من القيمة الدفترية وحسابات الإنتاج بل من القيمة العملية وإمكانية حصول الفائدة والاستخدام.

يقول فوكوياما في نهاية التاريخ (إنما علينا أن نعترف، أن الشركات لا توظف الباحثين لتحقيق سعادة الناس، بقدر ما تخدم تلك الأبحاث مالكي الشركات لتحقيق الأرباح الأكثر. وعلينا الاعتراف أن ظواهر تقسيم العمل والنمو البيروقراطي ما هي إلا ظواهر مبهمة من حيث دلالاتها الخاصة بسعادة الإنسان) ، وكما رأينا فإنها ليست مبهمة على الإطلاق بل إنها جزء من نوافذ التعبير عن النظام الذي لا يخدم سوى رأس المال ،ومهما كان الادعاء بالاهتمام بالإنسان فيه فهو محض ادعاء لا يقره الواقع وتاريخ السلوك لهذا النظام الذي تشكل أساسا على نهب أموال الشعوب والعيش طفيليا على إمداد بسرقة موارد الاقتصاد منها، وان التوسع العلمي كان في حقيقته هو نتيجة البحث عن وسائل حربية أقوى وتطويرها ومن الطبيعي أن تتطور، وتنبثق صناعات وآليات في كافة المجالات لكنها لا

تخدم الإنسانية بالهدف بل تخدم رأس المال وهيمنته ففي الوقت الذي كان أصحاب رؤوس الأموال من ملاك الأراضي والزراعة وكان لهم تأثير في صنع القرار تحول هذا القرار من اهتمامه برأي المزارع إلى اتجاهات أخرى عندما حولت أموال هؤلاء إلى تلك الاستثمارات وبقى المزارع الذي يعمل عند هؤلاء أسير واقع مفروض عليه لا يتمكن من الانفكاك عنه بحكم وبقاءه في حالة عمل لتسديد الأموال المترتبة عليه، وهذا الوصف ليس الا مستخلصا من وصف الزراعة في منشورات حكومية.*3

إن السلطة الحقيقية في النظم الرأسمالية ليست للجميع وإنما للذين يخدمون سطوة رأس المال لذلك تضعف التأثيرات العرقية وغيرها من الروابط الهابطة ولكن تبقى محددة عرفا لتولي السلطة إلا من اناس يحددهم هذا الانتماء وفق المصلحة، وتبقى القوانين تحدد الديانة مثلا بل وتفاصيلها – على الرغم من نكران الآليات لها – على رأس الدولة ورغم ذلك نجد الأصوات تنتقد مواقع أخرى من العالم لمراعاة الوصول إلى رأس الدولة من تقل نسبة وجودهم عن منطق توليهم السلطة تلك في حين أن اضطهاد المخالف يوضع في قوانين تشرعها البلدان المعتمدة لليبرالية كنمط حياة.

من هنا نرى أن المتحكم فعلاً هو الغريزة سواء ظهرت في حب التملك (رأس المال) أو في حب السيادة (الاحتلال) أو في منع الدول من التقدم لرأب الفراغ المدني والتكنولوجي كما يحصل بالسلوك مع إيران، ومن قبلها العراق، أو للسيطرة على مواقع إستراتيجية للتحكم بالنفوذ والقوة وإمدادات الطاقة كأفغانستان وغيرها من أنواع التسلط والجر للتبعية حيث توجد الموارد الممدة للتكنولوجيا والطاقة.... ونلاحظ أن التدين كغريزة تظهر بشكل بشع يرتبط عملياً بما توحي به أهداف سياسية أو اقتصادية للمتنفذين واستغلال غريزة التدين في السيطرة على العقول للجند العاملين .

---

*3 لاحظ موجز الاقتصاد الأمريكي (منشور وزارة الخارجية) لكريستوفر كونت/ الطبعة العربية

هذا الوضع المأساوي للنفسية والعقلية المهيمنة في الغرب ليس إلا للفراغ الفكري الحضاري بل الخوف منه ومقاومتهم الطبيعية لما يجهلون تتمثل في نشر الجهل المتعمد من قبل المتنفذين عن الإسلام ، مثلاً رغم أن هنالك منهم من يعلم من محتواه الكثير ولكن حين يقرر مفكر معتمد مثل فوكوياما أن الإسلام لن يجذب سوى من خرج من أتباعه يوحي بأمور منها:

الأول أن من يتبع أفكار ودعاية هؤلاء لا يعتبرونه منظماً لنمط حياتهم أو الصيغة الحزبية التي هم فيها ، فهو إنسان منتزع من جذره الغرض تعطيله فقط.

الثاني أن هنالك إنكار لحقيقة أن ما يقرره كواقع هو كذب على عقله ليبرر نجاحا مفروضا يميل له هواه وتحكم غريزته في حب السيادة على ما يشاهده من واقع مخالف، من اعتماد الشواذ لتعمم لمن ليس معه ، واتخاذ نقاط شاذة مضيئة للتعميم لمن هو معه، وهذا يدل بوضوح على استعمار الغريزة للعقل البشري في الدعاة أمثال فوكوياما وتقرير الخراب في الإنسانية وسحق العدالة للبشرية.

الثالث الفهم الغريزي الغربي للمعتقد بأن الأتباع لهم جنس ونوع وهذه عملية تفريغ للفكر وجهل بطبيعة الإسلام والفهم له أنه ليس كالحزب الديمقراطي والجمهوري يأتي وراثة وإنما هو قناعات فكرية لوطن ليس له موقعاً جغرافياً ولا هو لصيق بقومية وأن ليس فيه خروج فإما أنت تؤمن به فتكون فيه أو لا تؤمن به فلا يجبرك على الانتساب له ، وان هنالك فهم بل عدم فهم وتفريق للإسلام في إدارته للحياة وتعامل مع الإسلام وهو محيّد عن الحياة كما هو اليوم.

إن من الصعب لعقلية تجعل من الآليات أيدلوجيات فكرية أن تتعامل مع فكر حضاري تنبثق منه النظم، ولكن عذر هؤلاء جميعاً أن العالم الإسلامي اليوم هم في الغالبية العظمى يجهلون هذا الدين الذي يتعصبون له ويبدون جدلاً في الدفاع عنه وهو مستبعد من دواخلهم رغم أنه على ألسنتهم واستبعاده ليس إلا لجهلهم فيه بما يخلق تخلفا مركب العوامل.

ولعلني عند هذه النقطة أستطيع القول أن استعمار الغريزة عاماً ولكن بدرجات متباينة إنما هي شاملة لعالم اليوم وأود أن انتقل مباشرة إلى استعمار الغريزة للعقل في العلم الإسلامي الحاضر.

2- حاكميه الغريزة في العلم الإسلامي اليوم:

الإسلام ليس أمراً وراثياً أو لقباً يمنح بل انتماء لوطن وعقيدة وفكر ، هو رؤية للحياة والإنسان وطرق سعادته، هو مجتمع يحتوي فاعلية وإدارة لمختلف الانتماءات والأفكار وتنسيقها لخلق مجتمع متكامل يحقق العدالة لمن فيه والحماية

والرعاية سواء كان يدين بالإسلام أو بغيره من الأديان أو الأفكار وله تمام الحق فيما يعتقد مادام لا يستخدم العنف أو إعلان الحرب على الإسلام فهو جزء كامل العضوية لا يختلف عن المسلمين انتماءً للدين إلا بأن له حق إضافي على المسلمين أنفسهم والدولة الحاكمة بالإسلام هو حق الذمة والذمة هي ذمة رسول الله بأن من يخاصمهم فهو خصيم رسول الله يوم القيامة، وهذه حماية شرعية تضيف سوراً قوياً لحقوقهم والسعي لإعطائها من المسلمين مكلفين وليس تسامحا أو منّة وإنما أداء لواجب شرعي وقواعد نظام المجتمع والدولة وتنفيذا لحب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

هذه المفاهيم غائبة غير عاملة غير موصوفة غير مستعملة ، وما هذا إلا مظهراً من مظاهر الجهل الكثيرة الذي يبرز في الواقع وفي عقول الآخرين بسبب غياب مؤسسة الدولة الإسلامية وفقدان التمكين.

إن أممَ العالم كانت بصيغة قبلية ، والشرق من أقوى النظم العشائرية فيه والمستمرة ليومنا هذا لأنها كانت ومازالت تعتمد القرابة العشائرية وسيلة إدارية تنظيمية ضمن المجتمع المدني وترتفع هذه القيمة رغم كونها رابطة هابطة لا تنتج فكراً عند غياب الفكر واستمرار الحياة المدنية العادية وفق نظامها وغياب الدولة الضامنة وفق الفكر العامل.

حين أتى الإسلام أصبح الضامن للإخوة البينية وأخفى تماما تأثير القبيلة الذي كان معروفاً قبله إلا أنه حول قيمتها إلى الرحم وصلته ووضع درجات الاستحقاق في التكافل وفق تحويل كبير في القيمة القبلية ولكن بفهم إسلامي خالٍ من العصبية العمياء وإنما ضماناً للحقوق والتكافل الاجتماعي الذي هو ضامنا إسلامي نافذ في المجتمع المدني الإسلامي بشكل ضمن مفهوم المعتقد والتواصل وليس بقانون شامل ، رغم أن أجزاء منه تشرف عليها الدولة ، بل من واجبها استحصالها وتدخل ضمناً فيها وإلى حدٍ ما قوانين جزائية ، لكن نظام التكافل يحرص كل مسلم على تطبيقه لارتباطه بالعلاقة البينية بينه وبين خالقه ، ولعل تميز أسس النظام الاقتصادي الإسلامي في عموم تفاصيلها أنها ترتبط بهذه العلاقة البينية بين العبد وخالقه سواء في المعاملات أو التعاملات أو بالتجارة والصناعة وبضمان الحق المالي للملكية الفردية والعامة ومحددات ما يمكن أن تملكه الدولة وما يمكن أن يمتلكه الفرد وحقوق المجتمع ككل في هذه الأملاك وتعاملها مع النظم الأخرى التي لا تؤمن بما يطرحه الإسلام ومطاطية ذلك وقابليته على التوسع لكونه يدخل صميما في الإدارة للحياة المدنية.

الإسلام وضع تشريعاته لتنظيم الحاجات والغرائز ، كان الشارع واضحاً في تشخيصها والاعتراف بها بصفة وطبيعة وقدرة المخلوق، وتوجيه هذا الإنسان المكرم من الله ذكراً كان أم أنثى إلى أن يكون فاعلاً منظماً لشهواته وحاجاته وما يعتمل في داخله من أحاسيس ومشاعر، لم يستنكرها بل وضعها في نظام ووصلها بأحكام وقوانين الدولة وبالعلاقة

البينية مع الله جل وعلا مباشرة فهي لا تخضع لمراقبة مخابرات واستخبارات الدولة وإنما الدولة تتعامل مع الظاهر منها أما المخفي وما لا يظهر بما لا يشيع الفاحشة في المجتمع فأمره بين الإنسان وربه.

قد يكون بعض هذه الأمور عاملاً فاعلاً وبعضها راسخاً وبعضهاً مخترق وربما اتخذ شكلاً تقليدياً وفهمه بدرجات تتوقف على عوامل عدة ليس أدناها الإدراك للمقاصد وتفاعل الشرع بفقه الواقع، فهذه النقطة هي نقطة الأساسية ومحور مهم.

المفاهيم الإسلامية محصنة بالنص ، فما يبرز من تفسيرات واقتحامات وتأويلات لا يمس صلبها انحرف أو انجرف أو أصاب.

وهذه ميزة تجعل الإسلام ليس نظاماً تاريخياً يخضع لقوانين النشوء والاندثار وتبقى النظم المدنية المستندة أو المسندة إليه في التاريخ هي الخاضعة لهذا بدرجة أو أخرى وفهم هذا الأمر مهم جداً لحركات النهضة الإسلامية في علاجها وتنظيرها حسب فقه الواقع والمتاح من آليات لعلاجه، أو طريقة التعامل معه وكان فيه من النقص الكثير.

حين تتعامل مع الإسلام فإنك تتعامل مع برنامج حياتي غير قابل للتجزئة ، لذا كان العلم والمعرفة والبناء الإيماني والتطبيق لكل هذا من العوامل المحددة لقوة النظام بكافة اتجاهاته الاقتصادية والسياسية والفكرية بتفاصيلها ، وهو نظام يحمل مهمة الفكر في بنيته والمهمة هي التمكين لله ورسوله وهذا يعني بقاء الإسلام فاعلاً ليس من الناحية العاطفية والانتساب الدعوي ، فهذا ليس موجوداً أصلا وإنما الانتساب لأحكام الشريعة والولاية الممنوحة للأمة.

ولو مررنا عبر التاريخ نجد أن الخلل الحقيقي لتلاشي الدولة رغم الكثافة البشرية الحاملة لهذا المعتقد هو تحول الإنسان في مقدار الفاعلية بهذه الصعد وانتشار الجهل، وتحول المسلم من شخص يتفكر إلى شخص متلقي لأن الحركات التي ظهرت كانت تركز على نواحي منفردة وليست شمولية وعلى جانب من هنا ومن هناك ، فمنها ما أمسك بفقه ما أو مذهب ما ومنها ما أمسك بفكرة غير مدققة أصلاً وإنما هي تلبية لواقع تحسس الناس الظلم فيه.

كان للفتنة الكبرى أثراً في محاولة تجنبها مرة أخرى عند الفقهاء رغم أن تجنبها كان بعمليات صعبة ليس فيها وصف لواقع حقيقي مقبول تقبله تلك التفسيرات أو الفتاوى ، وقبول حكام التغلب والذي كانت الغاية منه وقف الاحتراب لم يوقف الاحتراب فعلا وإنما عطل دور الناس في القرار وافقد الاهتمام واتكل الناس على غيرهم في معرفة دينهم فبان مثل التخصص وبروز رجال دين وعامة يتهمون فهمهم في البداية استجابة للسلامة، ثم استسلموا للجهل.

حين نشير إلى الرعيل الأول والصحابة، نرى أن علمهم وإن تباين في درجات المعرفة ، إلا أنهم كانوا يتفكرون من أجل هذا نجحوا إلى زمن ما في نقل النظام من النظام القبلي ألمناطقي إلى نظام دولة يتكامل مدنيا ومجتمع يسوده الترابط محدد الأهداف ، لكن هذا الأمر لم يستمر ففي انكباب الناس على العمل بتوسيع دائرة الإسلام كان هنالك جيل ينشأ غير متكامل الفهم وجيل حديث الإيمان غير متكامل الشخصية الإسلامية، ودخول أناس آخرون يحملون رواسب من الجاهلية لم تنتهي فعلا، لان المعلم مشغول لحد كبير وعوائق اللغة، وأمورا نستطيع إجمالها بأن تخطيطا عمليا لاستيعاب الأقوام الداخلة إلى الإسلام فكريا لم يك موجودا فعلا ولكن التوجه للإسلام وان خفف من هذه السلبية ببحث الناس أنفسهم إلا انه فهم بطرق متعددة، وبأمور صغيرة تجمعت لتخلق بيئة فكرية تأخذ بالتوسع والشذوذ بعد الفتنة ، وهذا فيما أرى أعظم تدميراً من فتنة الاقتتال نفسها كعمليات حربية ، لأن تفجير الفتنة كان بعد الاقتتال حقا أما اختلاف الرأي الذي أدى للاقتتال فسببه حقيقة هو ضعف الفهم للفكرة وتغلب غريزة على غريزة أخرى لتعطيل فاعلية الفكر بهجمة غير مميزة الشخصية، ويذكر أن الإمام علي كرم الله وجهه حين استشهد قال (فزت ورب الكعبة) انه فوز ليس بالجنة فهو مبشر بها وإنما فاز بالخلاص من الفتنة التي وجد نفسه مدفوعا فيها ليس راغبا وإنما متحيرا في وضعها، لهذا قبل التحكيم بقبول الرأي الداعي له رغم أن جيشه في وضع منتصر.

الحقيقة أن القبائل العربية دخلت الإسلام فعلا والرسول ليس موجودا، وهذا يعتبر رسميا بعد حروب الردة، كانت العصبية القبلية فاعلة وهي غريزة صرفة، والحروب التي تلت لم تلغ هذه العصبية لأنها تميز المواقف في الشدة.

العرب في الجاهلية كانوا أحراراً كاملي الحرية لا تقيدهم إلا الأمور التي تقيدهم بقناعاتهم وكان القانون لا يرتكز على الحلال والحرام بل على العيب والعار، وهذا من القوانين التي استمرت ليومنا هذا وهو يبرز ويتعاظم كشكل حاكم مع ارتفاع الجاهلية. فذلك العربي حين يتوجه إلى الإسلام فهو لم يعد يخضع إلا لقناعته بالإسلام ولم يعد العيب كقانون حاكم عنده وإنما الالتزام بما أنزل على رسوله، هذا الوضع ليس هو وضع الأمم التي دخلها الفاتحون، هم أمم مستعبدة بأشد النظم طغياناً في ذلك العصر، والناس وجدت أنفسها فجأة تمتلك الحقوق وحرة من أشكال العبودية إذا احتجت ، تناقش ولا تقمع وتحاور للكسب والانتماء، دخلوا الإسلام ولكن بنفسية فيها أثر من جوانب الاستعباد والطاعة ، القرآن لم يكن متاحاً فلا طابعات وإنما كان محفوظاً ، وما يفهمه العربي من النطق لا يفهم معناه الداخل الجديد حتى مع الشرح لأن لغته العربية لم تكن على هذا القدر من البلاغة حتى ولوقت أصبح من علماء اللغة من هم ليسوا عرباً وظهرت مصطلحات كالمرادفات في معاني الكلمات القرآنية وهي ليست مرادفات فالكلمة العربية لها معنى واحد ودلالات القوة والمكان والزمان ونوعية الحركة والبيان، جزء من التفقه هو الخطير ، التثقف

ضعيف ، القناعات انتقلت لقابلية الإقناع عند من فهم فهمه وهو بالتأكيد اقتنع بفهمه فكان ينقل هذا لفئة قريبة منه، وبعد الفتنة كانت هنالك طريقة التفكير للأحزاب السياسية في التنظير والتبرير والدفاع ، فالمرجعية لم تعد واحدة والإمارة شبه مفقودة ، لكن ما قصم الظهر هو التغيير في نظام الحكم من الشورى وولاية الأمة إلى التوريث وتحديد الشورى بالاستشارة والمستشارين، وهو نظام غير مخطط وغالبا ما ينفرد الحاكم وولاته بالقرار.

عند انفراط هذا تبدأ الغريزة بالتحكم من حب السيادة إلى التملك، كغريزتين توفرت لهما البيئة في المنظومة الجديدة، لكن الانهيار لا يحصل بانهيار عروة الحكم وحدها، وإنما اتخذت الأمة دورتها الاعتيادية بالارتفاع والانخفاض وفق قواعد التاريخ، لكن الغرائز لم تعد تحكم بقانون الحلال والحرام وحده بل باتت تشرك معه قانون العيب والعار.

الناس كرعية الحاكم وليس كرعية الدولة الإسلامية حقاً أفقد الأمة طاقات واندفاع في التعلم والازدياد فظهر أعلام من الفلاسفة والمفكرين وأصحاب الاهتمامات العلمية وعلماء في الفقه، ومنها ما ظهر استشعاراً بضرورة التغيير وربما اخطأ التوجه والهدف ومنها ما أصاب ولكنه غير قادر على بلورة فكره ولزمانه.

لكن هذا لا يعني أن الأمة متجاوبة مع هؤلاء وإنما هم في تبع المرحلة وتوجهات النظام فهم تارة محاربون وهم تارة مرفوعون مقيمون، كوصف وليس حال طبيعي انسيابي متعاظم، معالجاتهم كانت ضمن هذه الكيفية ووفق فقههم للواقع وما يتطلبه الواقع... ونجد علماء للفقه من قضى من حياته ردحا في السجون ومن مات وهو مسجون ومن جلد وعوقب، ونجده ذاته مكرما موقرا من حاكم آخر. فغريزة السيادة كانت حاكمة للمنظومة، صحيح أنها غير فاعلة عند الناس إلا بقدر استسلامهم لواقع الحال لكنها عطلت القدرات وأشاعت الجهل العام وأصبحت الأمة عرضة لفاعلية أية أفكار طارئة ، وأصبحت العلوم الشرعية تخصصية وغالباً ما يكثر جيوش المتعلمين النسبيين أي أنهم متعلمون نسبة للناس وليسوا أصحاب معرفة فعلياً ، وسنجد ذلك من عوامل اختراق الأفكار الغربية للواقع الإسلامي الذي أصبح ومازال يجهل المعرفة الحقيقية للإسلام.

إنما يظن الناس في معارفهم ظناً رغم تقدم الوسائل كالمعلوماتية والنشر لكن الغرائز انتقلت إلى حالة الهيمنة وليست في طور نشوء السلطة فأضحت أمة اقرأ لا تقرأ كما يقال، وفي التقدم العلمي والتطور التكنولوجي أضحت الأمة مستقبلة متلقية ولا تجيد حتى التقليد لسيطرة الغرائز السلبية عليها والمتناقضة مع ما أصبح من ضمن الأعراف ويقوده قانون العيب سواء من التعاليم الإسلامية أو موروثات الجاهلية التي تختلط وتعتبر أحيانا من تعاليم الشريعة.

التوجه السياسي في العالم الإسلامي ليس منضبطاً بالمعارف الإسلامية، لهذا تجد أن الوسائل علمانية والدعوات مشوهة:

– إهمال في تحديد المعارف الإسلامية.

– وعشوائية في الإفادة من الوسائل المدنية.

هذا آت من الحيرة في فقه الذات قبل فقه الواقع ، تجد إسلاميين في منتهى الالتزام وما أن يدخل محك الحياة والسلطة تجده لا يسلك سلوكاً إسلامياً وهو يدعي أنه تربية منظومة معينة ، ولكن لا تأثير ولا حصانة بل ربما يكون أشرس من الدنيويين كما يسميهم في طلب الدنيا.

الحقيقة أن هذا وغيره من منجزات انفصام العرى التدريجي عبر التاريخ من إقرار التوريث في الحكم إلى إنهاء حاكميه الشريعة التدريجي والذي انتهى رسمياً بأفول آخر سلطان عثماني.

ومن الطبيعي أن يكون ما بينهما جهل متوارث وانحطاط اقتصادي وسياسي وضعف مقاومة لكل أفكار دخيلة، وإذا كان الضعف بدا جليا في حالتين:

الأولى : الرفض التام وضعف القدرة على الرد ومعالجته بتحريم الحلال أصلاً كرد فعل ووقاية وحماية ومنها مقاومة تعليم البنات التي كانت كابوسا حقيقيا ومدمرا للأمة فأم جاهلة لا تنتج إلا الجهلة مع آباء مشغولين بلقمة العيش الشحيحة، وعلماء ما هم بعلماء إما يرفضون أو يعللون بما لا يقنع أو يداهنون وينجرون نحو توجهات غريبة.

الثانية: اليوم وغداً ومسيرة الطريق الطويلة من المقاربات الفاشلة وتشتيت للقوى وضياع للمسلك الصواب، صحيح أن من يقود هذا هم أناس مثقفون لكنهم حين يستفزون تجدهم – في الغالب – يبرزون الهيئة والتأثير الغريزي أو تمثيل الحلم والعقلانية.

إن الغريزة في العالم الإسلامي تبقى محددة ومنظمة بقوانين الإسلام سواء أدارها العيب والعار الجاهلي في الجوانب الاجتماعية، أو غريزة أخرى هي التدين في نواحٍ أخرى ، لكن المعرفة والتفكر وظهور الكتابات العملية والقراءة الصواب للفكر الأسمى المعالجة للواقع عن طريق فقهه وليس مسايرته أو قبوله كواقع حال وإنما دراسة السبل والمسالك لعلاجه – هذه كلها – مؤثرة في نجاح أية حركة تغيير أو إصلاح ، وأن الاكتفاء بالنظرية دون التطبيق سينتج أفكاراً طوباوية لا تحل الواقع إما لأنها لم تحظ بالتجربة بأسلوب علمي أو لأن الواقع سيغادرها ولا تعود تصلح له كحل أو أبعاد علاج ملائمة لتوسع الرتق وتباعد محدداته.

إن الحركات الإسلامية التي تتجدد في آلياتها ولا تهمل التفكر والاستنباط على أسس صحيحة هي ليست الحل لواقع جاهل جاهلي محلي بل للواقع العالمي من خلال التعارف وإبعاد الناس عن حاكميه الغريزة إلى حاكميه الصواب.

والصواب وحاكميته لا تعني أن تتوجه الناس للإسلام وتترك وسائلها الخاصة وابتكاراتها وإنما قيادة كل ذلك بمنظور تكريم الله للإنسان ، هنالك للبشرية تجارب مدنية والنظام الرأسمالي ليس إلا تجربة مدنية وكذلك الشيوعي وغيرها من النظم، قد تكون أتلفت وسائلها لكن لابد من وجود الكثير من الاضاءات المدنية التي هي ليست حكراً على أحد من الشعوب بل هي عالمية التأثير والفاعلية ، ولا يتعارض هذا مع الإسلام متى ما ابتعد القائمين على هذه النظم الوضعية من محاولة التنظير لأدلجة غير ممكنة والبناء على سطح الماء بلا أسس وجعلوا منها أسباباً ووسائل للصراع الذي يبغون منه تغطية العجز الفكري والفشل في تحقيق العدالة الغير ممكنة في ظل نظام قائم على النفعية المرتجاة غريزياً ، ومصلحة أصحاب رؤوس الأموال بغياب النظام الفكري الصالح لمرتكز إدارة الواقع، إن هذه عملية خداع للذات وخسارة لوقت من أهم أوقات الإصلاح في ذات الوقت الذي يندفع فيه الفساد للتعاظم والسيطرة على النفسية البشرية.

إن من يريد إصلاح البشرية عليه أن يفهم الآخرين ويحاول التواصل معهم والاستفادة من تجارب الإنسانية القديمة والحديثة ، وليس الصراع أساس التعامل وإنما التعارف والاعتراف بالآخر هذه من قيم الإسلام التي أهملت أو أسيء تفسيرها والتعامل معها.

إن تنظيم الغرائز الحاكمة لعالمنا اليوم أمراً مهماً لديمومته واستمراره بشكل صحي ، نعم هو قد يستمر وبوضعه الحالي لكنه لن يحقق العدل وستفقد الذرائع بانفضاح الظلم عندها ستعمل غريزة واحدة هي البقاء ، وهذا يعني دماراً حقيقياً للبشرية ومرتكزاتها المدنية بدمار المرتكز الفكري الصواب ، نحن لا نقول للناس كونوا مسلمين حتى ولو كانوا في المجتمع الإسلامي لكن نقول للناس تعالوا لكلمة سواء نراها جميعاً أو نقررها جميعا لتنظيم الحياة بالتعارف وليس بالصراع ، وهذه الدعوة موجهة لداخل المجتمع الإسلامي الحاضر ليفهم مهمة ينتسب إليها وليس التدين الغريزي فكل صاحب دين له ذات المشاعر تجاه دينه حتى ولو عبد الحجر ولكن ليس لكل الأديان مهمة عامة لا لإتباع دينك أو عبادتك أو القضاء على الرأي الآخر وإنما لتوحيد الجهد البشري ووسائله للقضاء على تحديات منظومة الإنسان ووجوده وتحقيق العدالة.

خلاصة الأمر هو أن تحكم الغرائز في توجهات القيادات الفكرية والسياسية في العالم هو ما أفرز الواقع عبر تاريخ وإخفاقات طويلة الأمد ، وبسطحية تامة الفاعلية في بيئة من الجهل والجاهلية المستشرية لمنظومة تنمية التخلف الفاعلة اليوم بمنظمات متعددة وعلى درجات متباينة من التطور المدني.

إن التحركات والأفعال والمصطلحات (الهيمنة الخيرة أو الرحيمة) أو أن (الحرية هبة الرب) توضح اندماجاً في الاحتواء والمصدر لهيمنة الغريزة على قرارات الدمار والهيمنة لصالح أصحاب المصالح ، هذه كلها تعبير عن غريزتي حب السيادة والتدين الظاهر بشكل سطحي ومشاعر مضطربة تقود القدرات التكنولوجية والمخرجات المدنية المتطورة، إنها النظرة المتعالية التي تفرزها الغريزة باعتبار أن كل من هو غيرك لا يستحق إلا التبعية ويكون من ضمن الملكية ويوصف بأوصاف قد لا تكون فيه فعلا، وليس من خلاف في هذا بين أنواع التطرف كافة من حيث الانتهاك لما أراده الله من خلافة الأرض وعمارها.

الفهم الظني للإسلام

الفهم الظني للإسلام يسود عالم اليوم ولا يحتاج تعريف الأمر لمقدمات، وهو مابين الظن المادح والظن القادح ولكن المشترك هو التفاعل الغريزي مع الانطباعات ليولد انطباعا عن الإسلام سواء في الغرب القادح أو البلاد المسماة بالإسلامية المادح لهذا الدين دون فهم أو تدبير أو حتى تصور.

ولقد ذكر أحد الكتاب ولا ادري من أين أتى فهمه ولكني اضربه نموذجاً لنوعية الفهم عند المتعلمين الذين يحملون المعارف كالأسفار بلا تدبر أو اسبار للمعاني وفهمها ، فتراه قائلاً أن الشهادة وحدها كافية للرضا الإلهي أما ما عدا ذلك فهو إكثار في الطاعة أو العبادة ، ولست أدري أين الفهم لمعنى الشهادة وكأنه لا يدري أنها جذر الإسلام والجذر يبقى مخفياً لا دلالة عليه من غير ساق وأوراق وأثمار ، وأن الشهادة عنوان لمصدر التشريع وكلمات مدخل إلى وطن فيه جنة الأرض من العلوم والمعرفة والتطبيقات، وان نطق لهذه الكلمات بدون فهم أو إيمان إنما هو أمر ليس له قيمة ممكن أن تثمنه أو يعتبر هوية لكيان.

إن ظهور مثل هذه الناس التي تتكلم لغة القرآن وتبحث فيه وتختص به وتكتب عنه لهو من نعم الله على المتفكر بأن الله أكرمه بالفتح لذهنه وهو يرى ما لا يرى الآخرون ليس لعلم عنده منه بل لعلم عنده ممتن عليه به رب العباد.

ولكن هذا في الوقت ذاته مؤشر على مدى تحرك ما وراء الانطباعات لآسر الفكرة وتجنيدها إلى السطحية، هو مؤشر أيضا أن من يعاديك ليس بالضرورة قد عاداك عن فهم وإنما من خلال جدار حاجز بينه وبين فهم الفكرة نتيجة أسره لهذه الانطباعات التي يمكن أن يهيئ أرضيتها التعصب الذي هو مرافق للجهل والإنسان بطبيعته غير دقيق المشاعر تجاه ما يجهل ويصل به الأمر ليكون عدو ما يجهل وهو غالب ما يحصل لذا قيل (الإنسان عدو ما يجهل) فما يحرك هذه العداوة ؟

الجواب هي الغريزة ، الخوف بل الرعب من الذي يجهله، وإذا ما افترضنا أن هذا الإنسان في غابة وسمع بحركة فإنه يخاف هذه الحركة أما إذا كانت نتيجتها أن يسقط بعض جوز الهند على رأسه أو يقذف برمح أو سهم فهو سيعتبر أن هذا المجهول عدوا، وهو لا يتحسس انه قد يكون مواجها لمجموعة تجهل نواياه وان التفاهم معهم ممكنا.

الحكم المسبق يعطي توجه الحرب والمواجهة العدوانية وهو أما مرتكز على الجهل أو الغريزة أو أن هنالك إيحاءات أن المنطقة هذه هي منطقة خطر فعليه أن يخافها ولا يقربها لان هنالك قصصا واقعية نقلها ثقاة عن سوء هذا الأمر أو ذاك.

الحقيقة أن ما ذكرته مقاربة لتوضيح الفكرة وليس توصيفها الدقيق، لكن هنالك معاناة فعلية تواجه المصلحين اليوم بضغوطها نتيجة الحكم المسبّق المنبعث من تصورات وليس من حقيقة وهذا ما نراه اليوم خارج المحيط الإسلامي بشكل واضح وأما في واقع المسلمين فالمأساة اكبر.

في الغرب ينشأ الإنسان وعلى عينيه غشاوة تجاه الإسلام ، مجموعة من التصورات التي أضحت حقائق ، وبيئة مهيأة لتصدق أي شيء عن الإسلام ولهذا أسباب عدة:

1- طريقة التفكير الغربي: وهذا ينتقل بنا إلى النفعية ،المادية ،الفكرة المسبقة عن مصطلح الدين واعتبار الإسلام ليس إلا منافساً للمسيحية على الرعوية ، وهو ما تهتم به الكنيسة فعلا.

2- واقع المسلمين: وهذا هو المعظم للنقطة الأولى، فواقع المسلمين كوارثي فهم متخلفون مدنياً، وهؤلاء لا يفهمون دينهم ، وهم في الغالب يخلطون العادات والتقاليد والعيب والعار بالشريعة نتيجة هذا الجهل المركب – ونأتي لهذا – ردود أفعالهم غريزية عنفيه وأحيانا استسلامية ممحية الهوية وهذا أيضا نتيجة الجهل.

3- القيادات المؤثرة في الطرفين: وهذه القيادات إما أنها تجهل كجهل العامة ولكنها تفعّل جهلها إلى عمل وتنفيد ومنها ما رأينا من حروب والتي لها دور اقتصادي وغيرها من العوامل الغريزية الحاكمة والتي جندت العقل والتطور

المدني نحو ما ذكرنا، وهذه تشيع وتعظم الخوف وتطلق ما يرتكز كانطباع لجمع التأييد لسلوكها وأفعالها القيادات في البلاد الإسلامية ما بين أحادي النظرة وما بين من لا هوية له وهو ما سنأتي إليه.

الغرب فيه أناس وبشر مثل غيرهم يتحسسون ما يخالف الفطرة ويضيعون بجهل الحلول ويطبقون ما متعارف عليه وهم يبحثون في أعماقهم عن الحقيقة والبديل لهذه الحيلة التي لا تقنع الفطرة وتسلبها جوهرها، وفيهم من هو اليائس غير المهتم بسبب النشأة أو العجز لكن إلى أين؟

نحن تعودنا أن نوجه تحليلنا نحو التاريخ ونؤصل للأشياء لنجد لها تبريرات تقنعنا ، وهنالك منهج التعميم الذي نسلكه غالبا بسبب الجهل في الحقيقة وضعف التفكر عند غالبية المثقفين، نحن نؤسس لفكرة استمرا لحروب الفرنجة كما يؤسس لها أولئك المسجونين بغريزة التدين الناطقة بالكراهية وأحادية النظرة في الغرب نفسه باعتبارها حروبا صليبية مقدسة رغم ما أوضحه التاريخ أنها حروب الأطماع الحاكمة والكراهية المخيفة المستغلة لسلطة الكنيسة على عقول العام في تلك الفترة المظلمة من تاريخ الغرب، اليوم علينا أن نرى ما لا يرى ، وهو ذلك الحاجز من الانطباعات والتخويف من الإسلام.

واقع المسلمين الفكري المأساوي:

الحقيقة أن واقع المسلمين الفكري تراثي الانحدار بحكم التواصل النفسي والتاريخ، ليس العيب في القديم فقد حاول أصحاب الفكر أن يعالجوا ظواهر مجتمعهم والجوانب المظهرة للإخفاق ، وبما لائمها ؛ بيد أن الإخفاق الحقيقي هو مع تقدم العصر وظهور السطحية في المعرفة والتقليد واعتبار الاجتهادات الفكرية أمرا متبعا وبمختلف أنواعها، واتخذت نتائج وثوابت كانطباعات وليس كأصل الاجتهاد الذي يوضح انه اجتهاد مضطر ولوقت آني.

السماني وولاية المتغلب:

يقول السماني رحمه الله:*4 في ولاية المتغلب الذي يأخذ الحكم بالقوة ما نصه:

(ينبغي علينا أن نذكر خلو الزمان من الإمام المفترض الطاعة، وإذا لم يكن إمام للمسلمين ثابت؛ فمن تغلب على الأرض وملكها ودعا لنفسه، وقام بما يجب عليه من الحقوق وذب عن الدين وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو في الولاية من قبله وجهته..... فإذا قلنا ولاية من ولوه جائزة وحكمه ماض ، فمن ليس في مقابله إمام أولى وأحرى بجواز الولاية من قبله) .

كل هذه الشروط والتلميحات التي لم يك غايتها إلا درئ الاقتتال والحروب الداخلية ، ولم يثبت تاريخياً أنها حققت غايتها بل استسلم الناس للمتغلبين وإلى يومنا هذا ، لماذا ؟

لأن الناس فهمت ومع كل هذا جملة واحدة منقطعة (ولاية المتغلب جائزة) فهي شرعية إذن ، مع العلم أن المتغلب ندر ما حفظ شروط هذه الولاية في عصرنا هذا بل هم اليوم يحاربون الإسلام ويجبرون الناس على أتباعهم والنتيجة تبقى الفتنة لجهل الناس في حالة إزالتهم لان التدمير للأركان شامل والجهل سائد وهذا واقع تغلب الجاهلية. وربما عالج الجويني جانبا وأخلى جانبا، لكن الولاية تبقى للأمة وان تعطيل الولاية وفقدان دولة تدير تحكيم الشريعة يعني وجوب العمل لإقامتها والتخطيط لهذا وفق فقه الواقع والعصر بروية تحفظ حياة المسلمين وجمعهم وهذا ما أشار إليه الإمام السماني رحمه الله بوضوح، إنما الناس لا تحب أن تفقه الأمر، (وإن خلا الزمان من الإمام والمتغلبين على سبيل الفرض والتقدير، فكل حكم يلزم العامة والإمام بين أظهرهم فهو لازم لهم مع عدمه، وكل حكم لا يلزمهم لا يلزمهم ولا يجوز لهم فعله مع وجوده فهم فيه أيضا مع عدمه غير مخاطبين بفعله، والأول كالزكاة والصلاة وسائر العبادات التي ينفردون بها، والعقود التي يعقدونها، والثاني كالحدود والقطع في السرقة وضرب الجزية والإحياء ما هو مفوض إلى إمام ، فانه لا يستوفى ولا يأخذه بعضهم من بعض وكذلك الأحكام وتوليها) نرى بوضوح أن المشكلة ليست في المجتهد بل المشكلة في الانطباع عن الذي طرحه ونقل تقليداً ولا يجرؤ البعض على مخالفة الفهم المنقول باعتباره أحكاماً وهو منقول خطأ أصلاً ولا يغادر كونه انطباع عن فتوى وليست الفتوى فلا يملك السماني والجويني بتشريع ما لم يشرعه الله، فهم عالجوا حالة وبرؤية تمنع الفلتان وتنصيب بعض الناس أنفسها كولاة على الناس تقهرهم فوق قهر الواقع لهم.

---

*4 روضة القضاة الجزء الأول الصفحة 77 ونقلها عز الدين هشام في كتابه (النظام السياسي بعد هدم دولة الخلافة في الصفحة 55، 56)

ذكرت هذا كتوضيح لحالة نقل فكرة ربما يعتقدها قادة للحركات الإسلامية بهذا الطرف أو ذاك وهي تعامل ليس بأصلها وإنما تقليداً لنقلها.

الغاية أن تجميد العقول هو الفاعل في واقع الأمة، فالمعرفة إما أن تكون ظنية أو أنها مرتكزة على الظن، ونظرة الناس للتاريخ ووضع أحواله ومعالجاته وكأنها جزء من التشريع الذي ينبغي أن يكون فاعلا لبناء المستقبل أمرا يجر نحو التخلف بتمامه، ذلك أن التاريخ لم يك يمثل إلا الحدث وجرت على التكوين قوانين الزوال والاندثار التي لا يمكن إعادتها لأنها تمثل واقعاً مدنياً مختلفاً تطور الواقع المدني الحالي عنه. ولم يك التاريخ إلا كغيره فيه المشرق والمظلم ولا يعيد الناس نقاطه المضيئة إلا لأن الواقع مظلم فلا هي تفيد الاستدلال ولا تدع مجالاً لابتكار منارات أو تحسس البصيص الذي يمكن أن يتعاظم ليضيء الواقع ، علينا أن نفرق بين التشريع ومصادره المحددة فعلا وبين الحياة المدنية العادية الخاضعة لخبرة وتجربة البشر وان الحياة في الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي هي حياة مدنية.

المعرفة الظنية تجعل تعظيما لبعض الجوانب من الفقه وتخفي أخرى في واقع متدهور، فالإسلام شامل الحالات والتعاليم قابل للاستنباط منه، وحين يسود ضعف المعرفة ويختفي التوجيه الرشيد نجد أن هنالك تباينات في الفهم والتبني لزوايا منفصلة ومتباينة وكل منها يسوق الدليل لتقوية حجته، هذا الأمر لابد من علاجه بتثقيف العقل وتدريبه على قبول الحوار أولا وتعليمه البحث عن الحقيقة وليس أحقية الرأي وإنما قراءة الواقع ومعرفة أي الطرق ممكن أن تؤدي إلى الهدف حقا وهل ممكن أن تتوحد المعالجات مثلا بتوجيه الطاقة نحو الهدف بقبول فكرة أن الفكرة التي تنفد تتبع من الجميع لتوحيد التكوين الجديد.

هذا على أقل ما يمكن جعله كمنطق لقبول الآخر، لكن علينا أن نعرف أن إزالة الخوف من الإسلام بإزالة حالة جهله والتوقف عن تعظيم ما يسمى في الغرب (الإسلام فوبيا) وحالة الخوف من الإسلام هذه لا تأتي بالمداهنة والمقاربة وإنما بمحاولة المسلمين الالتصاق بدينهم خلقا وأخلاقا فليس من المستغرب أن أخلاق الناس المنتسبة للإسلام والجاهلة له في نفس الوقت تكون هي من مكونات الحاجز النفسي في عالم له تفاعلات غريزية مع الواقع ولا يتصور انه يواجه عالما لا يختلف عنه سوى انه عالم متخلف مدنيا ومنحدر حضاريا غريزيا مثله وليس مسلما بمعنى الفهم للفكر وتطبيقه وسلوك سلوكيات وأخلاق الإسلام، ليس هذا القول إلغاء للإسلام عن المسلمين كما يتصور البعض وإنما هنالك

فارق بين الإسلام وتطبيق المسلمين له آت من الجهل والتصارع والتعصب عن قلة المعرفة والاستعداد للتطبيق والمكابرة. إن هنالك مئات من الأمثلة ممكن أن تضرب من الواقع تفصل هذا الكلام من الاختلافات المذهبية السلبية الأداء بل ومعظم من ينتمي لهذا المذهب أو ذاك ليتعصب لأمور هو لا يعرف تفاصيلها، وكذلك اختلاف الرؤى السياسية المؤدي إلى تسفيه الآخر والانشغال بهذا عن سبيل التقدم الفعلي، وضياع قيم العدالة والتوازن وبناء المعرفة والتفاعل الايجابي مع الواقع.

وخلاصة لهذا الموضوع

أقول أن لا صراع بين الحضارات موجود اليوم لغياب الحضارات ، وما هو موجود هو صراع مبني على الغرائز ، حب السيادة والتدين،والتملك... وهذا الصراع مهما بولغ في فلسفته فهو صراع غير متوازن لن يؤدي إلا إلى دمار الإنسانية وضياع أعمار الناس المحدودة بتخريب الأرض وان ارتفعت فيها الأبنية لأنها لا تعنى ببناء مخلوق كرمه الله وهو الإنسان، هذا القول ليس خاتمة إنشائية بل هو توصيف لواقع لابد له أن يتغير وتغييره مهم للأجيال ، وليس لمصلحة الشرق أو الغرب أو أقوام وأقوام بل هو لمصلحة البشرية جمعاء لتتفكر ولا تدع المجموعات الفاسدة فيها تتحكم في مستقبل الأجيال الناتجة عنها أو تضيع أعمارها بالفساد، هذه مهمة الإنسان وليست مهمة مجموعة منه بأن يصغي هذا الإنسان للحقيقة ويزيل الحجب ويحاول أن يفهم دقائق ما هو معروض في الحياة وان يعمق ايجابياتها ويضعف مواطن السلبيات فيها وكذلك تبنى الحياة

لا أقول أن ليست هنالك منظومة قيمية في الشرق والغرب؛ ولكن هذه المنظومات لا تستند إلى فكر مغذي بل تبقى صناعة بامتياز لمستعمر اسمه الغريزة كعامل يفعل العقل بقياس النفعية وهيمنتها في جانب يبدو متوازنا لكنه طاغ في تأثيره على مهمة الإنسان في خلافة الأرض وإقامة العدل والتوازن بين الحقوق. وهذا يعني ضرورة التفكير بعقلانية لإقرار نظام يحقق العدل، واني إذ اطرح النظام الإسلامي ضمنا، فانا لا اطرحه على واقع حال المسلمين وليس كعقيدة تتبنى من غير المسلمين وإنما التوجه إليه كنظام سياسي واقتصادي قابل لتطوير المدنية والتوسع الفكري في الاستنباط المتوازن و يحقق مجتمع عالمي متنوع يعيش بسلام وتبقى هذه فكرة تتفاعل وحركة التاريخ تشير إلى تطور الوعي والتوجه نحو القيمة الحقيقية للإنسان.

مرفقات

BBC
bbcarabic.com

الكنيسة منقسمة بسبب الأسقف المثلي الجنس

يتباحث أعضاء الكنيسة الأنجليكانية في أنحاء العالم حول مستقبل الكنيسة بعد رسامة أول أسقف مثلي الجنس علنا .

فقد تمت رسامة جين روبنسون، الذي يعيش مع رفيقه منذ 15 عاما، كأسقف ولاية نيو هامبشاير الأمريكية في مناسبة شهدت الكثير من الاحتفال، والجدل، الأحد .

وقد أتيحت الفرصة لثلاثة من أعضاء الكنيسة للإعراب عن اعتراضاتهم خلال المناسبة فيما قالت إحدى السيدات إن رسامة الأسقف روبنسون لن تشق عباءة المجتمع الأنجليكاني فحسب، بل "ستحزن قلب الله" أيضا .

وفي ختام المناسبة قال رئيس أساقفة كانتربري، روان ويليامز، الزعيم الروحي للكنيسة الأنجليكانية، إن الانقسامات التي دبت في المجتمع الأنجليكاني العالمي في أعقاب رسامة هذا الأسقف "أمر يثير الأسى ."

تعين مواجهة تداعيات ذلك على خدمة وشهادة الأغلبية العظمى من الأنجليكانيين، خاصة خارج العالم الغربي، مواجهة أمينة
رئيس أساقفة كانتربري

غير أن بيان رئيس الأساقفة، الذي جاءت صياغته بعناية بالغة، تجنب توجيه انتقاد مباشر للرسامة، وكذلك تفادى الإقرار الصريح بها، واكتفى بوصفها بأنها تمت "بنية صالحة ."

وأضاف ويليامز "يتعين مواجهة تداعيات ذلك على خدمة وشهادة الأغلبية العظمى من الأنجليكانيين، خاصة خارج العالم الغربي، مواجهة أمينة ."

ويقول بعض المعارضين للأسقف إنهم يخططون لتأسيس كنيسة جديدة مع من يوافقهم الرأي من الأساقفة في الولايات المتحدة وخارجها .

وتقول سوزانا برايس مراسلة بي بي سي في نيو هامبشاير إن أنصار الأسقف يأملون تجنب حدوث انشقاق دائم، غير أنه مازال من المبكر التكهن بالآثار بعيدة المدى للرسامة التي جرت الأحد. خطاب مؤثر

وقد جرى الحدث في ساحة لهوكي الجليد تم إعدادها للمناسبة ببلدة ديرهام في ظل إجراءات أمنية مشددة، حيث انتشر رجال الشرطة على أسطح المباني وبشكل مكثف في الشوارع المحيطة .

وقد شارك نحو أربعة آلاف شخص، بينهم خمسون أسقفا أمريكيا، فضلا عن أسرة روبنسون وأعضاء كنيسته، في حفل رسامته .

وشهدت القاعة وقوف الحضور مع التصفيق الحار قبل تقديم الملابس الكهنوتية البراقة لروبنسون من جانب أسرته، وبينهم أمه وأبوه .

وعندها بدا صوته متأثرا بالانفعال حينما قال "لا يمكنكم أن تتخيلوا أي شرف أن تكون دعوتي قد أتت منكم ."

وخاطب الأسقف روبنسون المحافظين الرافضين لرسامته بالقول "ليعرفوا إن كان لابد من مغادرتهم لهذا المكان، أنهم سيكونون محل ترحاب دائما". "رمز للوحدة "

وكان ثلاثة من أعضاء الكنيسة قد ألقوا خطبا حينما سأل الأسقف فرانك جريزوولد الذي ترأس الحفل ما إذا كان لدى أي شخص ممانعة تحول دون المضي قدما .

لا يمكنكم أن تتخيلوا أي شرف أن تكون دعوتي قد أتت منكم
الأسقف روبنسون

ولكن جاء التصفيق الحاد ليقاطع عظة الرسامة التي ألقاها أسقف نيو هامبشاير المتقاعد دوجلاس تيونر حينما تحدث دفاعا عن روبنسون .

وقال الأسقف المتقاعد إن الأسقف روبنسون "سيكون رمزا لوحدة الكنيسة بشكل ليس باستطاعة أي منا أن نكونه ."

وخارج الحفل واجه المحتجون على الرسامة والمؤيدون لها بعضهم البعض وبينهم فاصل من قوات الشرطة، بينما جرت عظة منفصلة حضرها المناهضون للرسامة في كنيسة بمنطقة أخرى بالبلدة .

ويخطط بعض التقليديين، الذين يرون أن العلاقات المثلية انتهاكا لتعاليم الكتاب المقدس، لرفع طلب للزعيم الروحي للمسيحيين الأنجليكانيين في العالم، رئيس أساقفة كانتربري د. روان ويليامز، للسماح لهم بالانشقاق عن الكنيسة .

ولكن رغم الانقسامات الحادة يتوقع د. ويليامز أن يجري رأب الصدع في نهاية المطاف .

وقد قال ويليامز قبل حفل الرسامة "سيعلمنا الله كلا على حدة، ويوما ما سنهتدي بالشكر والتوبة لنتشارك معا بما تعلمناه كل في موضعه". "مطمئن "

يذكر أن زعماء بارزين بالكنيسة في أفريقيا قد تصدروا المعارضة لتعيين الأسقف روبنسون .

فقد وصفها رجال الدين النيجيريون بأنها أمر شنيع بينما قالت الكنيسة في أوغندا أنها بصدد قطع علاقاتها بأسقفية نيو هامبشاير .

وكان رئيس أساقفة الكنيسة الأنجليكانية في نيجيريا، بيتر أكينولا، الذي يمثل أكبر تجمع للأنجليكانيين خارج إنجلترا، قد وصف الوضع الجنسي للأسقف روبنسون بأنه "رجس ."

وقال راعي كاتدرائية جميع القديسين بنيروبي، القس بيتر كارانجي، إنه يشعر بالحزن العميق لنبأ هذا التعيين، غير أنه قال إن زعماء الكنيسة في كينيا مازالوا يأملون أن يكون هناك سبيل للحيلولة دون انشقاق الكنيسة .

وكان جين روبنسون قد تحدث إلى بي بي سي قبل رسامته قائلا إنه يشعر بالهدوء وأنه مطمئن ولا يعبأ بأنه لن يكون مقبولا على نطاق واسع كأسقف في الخارج .

وأضاف "حسنا، إن هذا يجعلني أشعر أنني في قارب واحد مع صحبة جيدة جدا لأن أغلب الأساقفة في العالم لا يقبلون خدمة ورسامة قسيساتنا وأساقفتنا من النساء ."

وتابع "الأمر الآخر هو أنني لست محل ترحاب الآن كقس مثلي علنا في أغلب تلك الأماكن ."

موضوع من BBCArabic.com
http://news.bbc.co.uk/go/pr/fr//hi/arabic/world_news/newsid_3237000/3237421.stm

منشور 2003/11/03
© BBC MMIX

تصاعد الخلاف في الكنيسة الانجلكانية بسبب اختيار أسقف مثلي

12/6/2009

ختارت اسقفية في لوس انجليس ثاني أسقف مثلي في الكنيسة الانجليكانية العالمية، مما عزز الخلاف العميق داخل الكنيسة بسبب هذه القضية .
وانتخبت ماري جلاسبول كمساعدة أسقف، على الرغم من حاجتها لغالبية من رؤساء الكنيسة الاسقفية الوطنية لمساندة ترسيمها .
وتسبب انتخاب جين روبينسون كأول أسقف مثلي قبل ست سنوات في انشقاق كبير في الكنيسة.
وكان التيار التقليدي داخل الكنيسة الانجليكانية عبر عن معارضته للانتخابات الأخيرة، ويصر المحافظون على أن الانجيل حرم المثلية الجنسية بشكل لا لبس فيه.
وأدى هذا الخلاف إلى تأسيس حركة اسقفية محافظة في الولايات المتحدة باسم الكنيسة الانجليكانية في امريكا الشمالية.
ويتعرض رئيس الكنيسة الانجليكانية العالمية، كبير أساقفة كانتر بيري، روان ويليامز إلى ضغوط للاعتراف بالكنيسة الانجليكانية في أمريكا.
ويقول كريس لانداو مراسل بي بي سي للشؤون الدينية إن الكثيرين في الولايات المتحدة سينظرون إلى انتخاب اسقف مثلي على أنه انعكاس للتنوع الذي أكدت الكنيسة عليه مرارا.
يذكر أن جلاسبول (55 عاما) كانت تعمل في منصب كنسي في اسقفية ماريلاند لثماني سنوات حسب وكالة اسوشييتد برس.
وأضافت اسوشييتد برس أن جلاسبول ظلت تقيم مع شريكتها بيكي ساندر منذ عام 1988.
ويقول الاسقف جي جون برونو إنه كانت هناك العديد من الجهود المنسقة حتى لا تحصل جلاسبول على الموافقة بسبب ميولها الجنسية.

هذا المحتوى من bbcarabic.com

هذا المحتوى مطبوع من موقع مصراوي و عنوانه على الصفحة التالية

http://www.masrawy.com/News/World/BBC/2009/December/6/1104518.aspx?ref=rss

Copyright © 2009 Masrawy. All rights reserved.

م. محمد صالح البدراني

mohamed-saleh@feker.net

www.feker.net & www.4nahda.com